تاريخ مصر
في العصر العثماني

دكتـــور
عبد المنعم إبراهيم الجميعي
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر

تاريخ مصر فى العصر العثمانى

د/ عبد المنعم إبراهيم الجميعى
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر

مقدمـــــة:

ظلت الفترة ما بين سقوط سلطنة المماليك فى مصر ١٥١٧م ودخول الفرنسيين عام ١٧٩٨م حائرة بين مؤرخى مصر الإسلامية ومصر الحديثة خاصة وأن معظم المؤرخين يعتبر أن الحملة الفرنسية هى البداية الحقيقية لتاريخ مصر الحديث بينما يقف مؤرخو مصر الإسلامية عند الغزو العثمانى لمصر ونظرا لأهمية دراسة هذه الفترة التى تعرف بمصر العثمانية باعتبارها المرحلة التى تمت على أثرها كافة التغيرات التى برزت من خلالها ملامح مصر الحديثة فقد رأت كليات الآداب بالجامعات المصرية ضرورة التواصل وسد الفجوة التى تفصل بين تاريخ مصر الإسلامية وتاريخ مصر الحديثة بتدريس تاريخ مصر فى العصر العثمانى خاصة وأن مصر خلال هذه الفترة كانت تعد ولاية عثمانية ذات أهمية متميزة نظرا لموقعها الجغرافى المتميز بين الولايات العربية الأخرى ولكونها مركزا لقوافل الحج الوافدة من بلاد المغرب، هذا بالإضافة إلى أن الدولة العثمانية كانت تعتمد عليها فى تنفيذ سياستها فى الحجاز خاصة وأن الكثير من الأوقاف المصرية كانت محبوسة على الحرمين الشريفين.

وقد اتسمت الحياة المصرية فى العصر العثمانى بأنها كانت إسلامية فى معالمها الرئيسية، كما اتسم الحكم العثمانى فى مصر بأنه كان حكما عسكريا خاصة وأن الحاميات العثمانية كانت أداة للحرب والحكم معا.

وقد ذاقت مصر الكثير من مساوئ الحكم العثمانى خلال سنواته الطويلة فتركت غنيمة باردة يستبد بها الباشوات الذين كانت تعينهم الآستانة، كما تأثرت مواردها بالنهب والسلب من ناحية وبالإهمال من ناحية أخرى خاصة وأن الولاة

الذين كان يعينهم السلطان العثمانى على مصر لم يهتموا بمصالح البلاد والعباد بل كان كل همهم التنازع من أجل المحافظة على الرياسة.

وظلت الدولة العثمانية حافظة لمركزها لفترة، ثم تطورت الأحوال تدريجيا حتى أصبحت سيادة الباب العالى اسمية تقريبا وازدادت سلطة المماليك، ولم يعد للسلطان من نفوذ سوى الدعاء له فى خطبه الجمعة، وأداء الجزية (الأموال المقررة) وضرب النقود باسمه.

وبالنسبة للزراعة فقد كانت تقوم على رى الحياض مع رفع المياه بالسواقى والشواديف، وكانت مصر تزرع المحصولات اللازمة للاستهلاك المحلى، وكان يصدر إلى الخارج جزء منها، وأهم هذه الحاصلات القمح، والذرة والكتان، والأرز والقصب، والعدس، والبلح والقطن. وقد اسند استغلال الأراضى الزراعية التى تم تقسيمها إلى مقاطعات إلى وكيل يديرها بإحدى طريقتين:

الأمانـــــة: وهى نسبة إلى أمين (كاشف) يدفع له مرتب مقابل استغلاله الأرض التى يقوم بتوريد عائدها إلى الخزانة.

الالتـــزام: وهو الغالب... حيث يقوم الملتزم باستغلال الأرض ويورد جزءا محدودا من العائد للخزانة ويحتفظ لنفسه بالباقى مقابل استغلاله الأرض.

أما التيمار– أى الإقطاع– الذى انتشر فى جميع الولايات العثمانية، والذى كانت الأرض تسند فيه إلى شخص يقوم باستغلالها لحسابه الخاص مقابل خدمات عسكرية أو حكومية– فلم يطبق فى مصر[1]، باستثناء بعض الثغور التى كانت تسند إلى قواد الأسطول العثمانى المتمركزين فيها.

ولما كانت الزراعة تعد بمثابة المصدر الأول لثروة مصر القومية فقد أدى إهمالها إلى اختلال أحوال مصر الاقتصادية فى ذلك الوقت.

---

(1)Shaw: Ottoman Egypt 1517-1798 , P. 26-27.

وبالنسبة للصناعة فقد قامت فى مصر صناعات متعددة كان أهمها صناعة النسيج والقطن والصوف والكتان والحرير[1]، وكان من أهم مراكز نسج القطن المحلة الكبرى، وبنى سويف، أما نسيج الكتان فقد كانت تتركز صناعته فى بعض مدن الدلتا والفيوم .

وقد اشتهرت الفيوم بصناعة نسيج الصوف وصنع الشيلان، وكانت مصر تستورد خيوط الحرير حيث يتم نسجها فى مدن الدلتا والقاهرة ثم يعاد تصديرها إلى سوريا. وقد ترتب على صناعة نسج الحرير قيام صناعات أخرى فرعية منها صناعة الأصباغ، حيث اشتهرت مصر بإنتاج "صبغة الورد" بصفة خاصة، كما قامت أيضا صناعة الكلف والعقد والتطريز.

وكذلك قامت صناعة "الكليم" وهى صناعة للسوق المحلى وإن اشتهرت الفيوم ومنوف بصنع نوع راق منها كان يصدر إلى سوريا وتركيا.. وكان عرب وادى النطرون يزودون تلك المدن بالخامات اللازمة، وتعد صناعة الجلود من الصناعات الهامة فى تلك الفترة، حيث تدبغ الجلود وتصبغ قبل استخدامها فى صناعة الأحذية والسروج وغيرها... وقد تركزت صناعتها فى القاهرة، ولم تكن تكفى حاجة البلاد بدليل استيراد مصر لكميات كبيرة منها من المغرب.

وقد قامت فى معظم المدن المصرية صناعة عصر الزيوت واستخراجها، أما الصناعات الفنية والدقيقة فقد اقتصرت على المدن الكبيرة.. فاختصت القاهرة بالخشب والمعادن حيث كانت تستورد خاماتها. وإن كانت قلة الطلب على المصنوعات الفاخرة قد اثرت على صناعتها فتضاءل شأنها.

وإلى جانب ذلك فقد كانت هناك صناعات أخرى مثل صناعة العطور فى الفيوم، والسكر الأحمر والعسل الأسود فى مدن الصعيد، وصناعة ملح النشادر وملح الطعام[2]، أما صناعة تجفيف الأسماك وتمليحها التى اشتهرت بها دمياط

---

(1)Gibb and Bowen: Islamic Society , P. 297.

(٢)د./ السيد رجب حراز: المدخل إلى تاريخ مصر الحديث، ص ٥١.

بصفة خاصة فقد لاقت بعض الرواج، وذلك بسبب تصدير هذه الأسماك إلى الخارج.

وقد انتظم المشتغلون بالصناعة في المدن في طوائف حرف مختلفة، أطلق عليها اسم الأصناف، وهو النظام الذى كان سائدا فى العصر المملوكى.

وكان لكل حرفة- أو صنف- شيخ يشرف على جميع الشئون الداخلية للطائفة، وهو حلقة الاتصال بين طائفته وبين السلطات الحكومية. وإلى جانب الشيخ كانت الطائفة تتألف من الأسطوات وهم الذين يملكون أدوات الإنتاج والحوانيت، ثم الصناع باليومية، وأخيرا الصبيان، ولقد كان لنظام الطوائف مزاياه وعيوبه.. أما مزاياه فهى إيجاد نوع من الترابط والتعاون بين أبناء الحرفة الواحدة، كما أتيح لكل فرد من أفراد الطائفة الشعور بالطمأنينة التى توفرها له طائفته إذ هى تحمى حقوقه وتدافع عنها[1]، وقد أكسب نظام الطوائف أغلبية الطوائف روحا دينية عالية[2]، إذ كانت معظم الطوائف تنتمى إلى جماعة دينية.

أما عن عيوب نظام الطوائف فكان إغلاق الباب فى وجه رءوس الأموال التى كان يمكن استثمارها فى الصناعة[3]، كما أنه كان عاملا من عوامل الجمود حيث لم يكن من المتيسر أن يخرج فرد من طائفة إلى طائفة أخرى.

وإلى جانب هذا فيرجع تأخر مستوى الصناعة فى مصر العثمانية بوجه عام إلى ما يلـــى:

١- أن مصر كانت فقيرة فى المواد الخام، فباستثناء خيوط النسيج والجلود كان عليها أن تستورد معظم المواد الخام وحتى خيوط النسيج فإنها لم تكن تكفيها فى معظم الأحيان.

٢- إفتقار مصر إلى المواد الحرارية اللازمة لبعض الصناعات، إذ كانت تفتقر للفحم ومواد الطاقة.

---

(١)المرجع السابق، ص ٤٨-٤٩.
(٢)د. محمد أنيس: الدولة العثمانية والشرق العربى.
(٣)د. السيد رجب حراز: المدخل إلى تاريخ مصر الحديث، ص ٥٠.

٣- تحول سير التجارة ما بين الشرق والغرب عن البحر الأحمر إلى رأس الرجاء الصالح .

وقد أدى هبوط مستوى الصناعة فى مصر فى القرن الثامن عشر إلى منافسة الصناعات الأوروبية المتطورة للصناعات المصرية المتأخرة بحيث عجزت هذه الأخيرة عن الصمود فى مجال المنافسة، مما أدى إلى زيادة تدهورها.

أما عن التجارة فقد كانت تنقسم إلى قسمين: تجارة داخلية وتجارة خارجية. وبالنسبة للتجارة الداخلية فقد كانت تتم فى أسواق تعقد أسبوعيا فى كل مدينة ومركز زراعى حيث يجرى تبادل السلع المحلية مع سلع العاصمة[1]. وكانت تعقد فى القاهرة أسواق أسبوعية، تباع فيها سلع الأقاليم التى تغذى الأسواق العامة والحوانيت. أما تجارة الجملة، وعمليات الاستيراد والتصدير فكانت تجرى فى الوكالات التى كانت تزخر بها القاهرة، وكما خضعت الصناعة لنظام الطوائف، كذلك كان شأن التجارة حيث اختصت كل طائفة بنوع معين من التجارة، وبسوق معينة، ووكالة محددة، أما عن التجارة الخارجية فقد أصيبت بخسارة كبيرة نتيجة لاكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح الذى أدى إلى تدهور الاقتصاد المصرى، إلا أنه بعد أن أصبحت مصر ولاية عثمانية، نشأت بعض العوامل المساعدة على تنشيط نسبى للتجارة الخارجية، أهمها:

- أن مصر أصبحت جزءا من كيان سياسى واقتصادى يشمل النصف الشرقى من حوض البحر المتوسط، مما أدى إلى اتساع نطاق السوق الاستهلاكية فجابها التجار بسهولة، وكانت مصر بحكم موقعها مركزا هاما فى عملية إعادة توزيع السلع.

كذلك فقد تمكن العثمانيون من فرض نفوذهم وسيطرتهم على حركة الملاحة فى البحر الأحمر ومنعوها عن الأوروبيين، فى الوقت الذى اشتد فيه الطلب على بن اليمن، ومن ثم استغلت مصر هذا الوضع لصالحها، فاحتكرت إلى حد كبير تصدير البن إلى أوروبا حتى نهاية القرن الثامن عشر. وقد سلكت التجارة عدة

---

(1)Gibb and Bowen: Islamic Society, P. 297.

طرق منها الطريق الشرقى إلى الحجاز وكانت التجارة تنقل عبره إما بطريق القاهرة- السويس بواسطة قوافل ترتب أمرها قبائل عربية، ثم تقوم السفن بحمل التجارة من السويس حتى ميناء جدة.. أو عن طريق القصير حيث تسير القوافل بحذاء النيل حتى قنا جنوبا، ثم شرقا إلى القصير، ومن هناك تنقل التجارة بسفن إلى جدة.. وأخيرا كان هناك طريق برى عبر سيناء وهو الطريق الذى تسلكه قوافل الحج وفى ذلك الحين كانت صادرات مصر إلى الشرق تتألف من منتجات أغلبها سلع غذائية مثل القمح والأرز والعدس، ومنتجات أخرى مستوردة من أوروبا وأهمها الأقمشة... أما واردات مصر فكان البن أهمها على الإطلاق ثم الأعشاب الطبية والبهار والبخور والخزف الصينى والأقمشة الحريرية. وطريق آخر عبر أفريقيا- وخاصة دارفور وسنار- تتم التجارة فيه عن طريق القوافل، وكان أهم ما يجلبه تجار أفريقيا إلى مصر العبيد، ومن هنا سمى تجار أفريقيا بالجلابة، وكانت لهم بالقاهرة وكالة تعرف باسم وكالة الجلابة بحى الخراطين. كذلك كانوا يوردون إلى مصر التبر والعاج وريش النعام والصمغ "العربى" والتمر هندى[1]، أما صادرات مصر إلى أفريقيا فكانت تتألف من منتجات محلية أهمها النسيج والصابون والمحلب، ومن منتجات أوروبية أهمها الجوخ والزجاج والمعادن.. وأخيرا من منتجات شرقية مثل البن والنسيج. وكان هناك طريق ثالث عبر البحر المتوسط. حيث كانت التجارة تأخذ طريقها بحرا من ميناء الاسكندرية أو دمياط أو رشيد التى ازدهرت بصفة خاصة فى العصر العثمانى. يضاف إلى ذلك أنه كان هناك طريق برى بواسطة القوافل إلى الشام، ولكنه لم يكن فى أهمية الطريق البحرى، وكان الأرز والكتان وملح النشادر والسكر والعاج والجلود على قائمة صادرات مصر إلى تركيا والعديد من ولايات الدولة العثمانية.

أما واردات مصر فكانت تشمل كذلك الخشب والفواكه المجففة وكانت حركة التجارة نشطة مع الشام، وأغلبها يتم عن طريق موانئ عكا وصور وصيدا وبيروت، إذ كانت مصر تصدر إليها الأرز والفول والعدس ونسيج الكتان،

---

(١)د. السيد رجب حراز: المدخل إلى طريق مصر الحديث، ص ٥٥.

وتستورد التبغ من اللاذقية والصابون من فلسطين. وكان معظم تجار الصابون بالقاهرة من نابلس والقدس وغزة أصلا، حيث كانت تضمهم وكالة الصابون... كما أن الشام كان يزود مصر ببعض المواد الخام للنسيج مثل القطن والحرير.

كانت التجارة مع المغرب تتم فى معظم الوقت عن الطريق البحرى، وجزء منها بالطريق البرى خلال موسم الحج. وكانت مصر تصدر إلى المغرب الأقمشة ومعظمها من الإنتاج المحلى، والبعض من الإنتاج الشامى، أما الواردات إلى مصر فكانت بعض المنتجات الغذائية مثل زيت الزيتون والعسل، وبعض المنتجات المصنعة فى المغرب مثل الطرابيش والبرانس والأحزمة والشيلان والأخفاف المغربية. وكانت المنتجات المغربية تباع فى سوق خاصة بها فى حى ابن طولون تسمى سوق المغاربة. كذلك كانت فرنسا والبندقية وبعض المدن الإيطالية من أهم البلاد التى تتعامل معها مصر تجاريا فى أوروبا الغربية. وكانت الصادرات المصرية إليها تتألف من منتجات نباتية وحيوانية وأملاح، ومنتجات أخرى شرقية وأفريقية.

وأهم تلك الصادرات الأرز والبن والكتان والصوف والجلود وغزل القطن وملح النشادر والصمغ والأعشاب الطبية والأقمشة القطنية والكتانية.

أما الواردات إلى مصر فكانت تتألف من بعض المنتجات المصنعة كالأقمشة خاصة الخوخ والورق وبعض المواد الخام مثل القصدير والنحاس وبعض المواد الفاخرة كالمرجان والزجاج.

ومن كل ما تقدم يتبين أن حركة التجارة لم تكن كاسدة أو متدهورة الأمر الذى جعل بعض التجار وضعا متميزا وسط الشعب المصرى. وقد بلغ بعضهم حدا وفيرا من الثراء مما ساعد بعضهم على الاختلاط بالحكام ومصاهرتهم.

غير أنه كانت هناك عدة أسباب محلية عرقلت فى كثير من الأحيان رواج التجارة، ضمنها سوء المواصلات البرية وعدم توافر الأمن فيها، حيث كان اللصوص وقطاع الطرق يهاجمون القوافل، إلى جانب إهمال إصلاح الموانئ البحرية، فضلا عن ارتفاع الضرائب على الوكالات وكذلك الجمارك.[1]

وحول العملة المتداولة خلال الحركة التجارية فقد كان لمصر نظام مالى مزدوج، شأنها فى ذلك شأن جميع البلاد الخاضعة للامبراطورية العثمانية، حيث كان التعامل يجرى بمسكوكات عثمانية ومحلية وأخرى أجنبية. وكانت العمليات التجارية الكبرى تجرى بواسطة المسكوكات الغربية.. أما النقد المتداول فى الحياة التجارية اليومية العادية فكان عبارة عن المسكوكات المحلية التى خضعت طوال الحكم العثمانى لتخفيضات متتالية فى قيمتها، الأمر الذى كان له أكبر تأثير على الحياة الاقتصادية فى مصر، حيث أدى ذلك إلى ارتفاع الأسعار، وبصفة خاصة منذ منتصف القرن السابع عشر، وقد أدى هذا بدوره إلى آثار اجتماعية سلبية حيث عانت أغلبية الشعب من غلاء المعيشة وارتفاع الأسعار.

ولقد كان استقرار قيمة بعض العملات الغربية عاملا رئيسيا فى تمسك المصريين بالتعامل بها، وكانت هذه العملات تجئ إما من أوروبا مباشرة أو من تركيا حيث كان الميزان التجارى بينها وبين مصر فى صالح الأخيرة.

وكانت المسكوكات المحلية تضرب بأمر الباشا فى دار الضرب بالقاهرة أو "الضربخانة"، وكانت إما مسكوكات ذهبية تطابق المسكوكات الذهبية فى استنبول وتحمل اسم السلطان الحاكم وتاريخ توليته ثم مكان الضرب وتاريخه وكان الجنيه السائد حتى أواخر القرن السابع عشر يسمى "الأشرفى".

وفى عام ١٦٩٧ تلقت مصر الأوامر بضرب جنيه جديد يحل محل الأشرفى ويحمل طرة السلطان مصطفى الثانى، وقد أطلق عليه فى مصر اسم "شريف طوالى" أو "أبو طرة"، غير أن استعماله لم يدم طويلا إذ ما لبث أن حل محله الجنيه المسمى "الزنجرلى" ثم "الفندقلى"، و "زر محبوب".

---

(1)Gibb and Bowen: Islamic Society, P. 299.

أما المسكوكات الفضية المحلية "النصف فضة" فكانت نادرة إلى حد ما.. وما تاريخها إلا سلسلة من تخفيضات متتالية لقيمتها خلال الأزمات الاقتصادية ومحاولات قصيرة الأمد لتحسينها.

وتعتبر المسكوكات النحاسية "الفلوس" أو "الجداد" أكثر المسكوكات انتشارا فى المعاملات التجارية البسيطة، وقد اختلفت قيمة هذه الفلوس ووزنها بالنسبة للمسكوكات الفضية، ولكن وزن الفلس فى أغلب الأحيان كان يقدر بخمس إلى نصف وزن المسكوكات الفضية.

أما المسكوكات الأجنبية التى تعاملت بها مصر فكانت فى معظمها غربية وهى تنقسم إلى مسكوكات ذهبية وأخرى فضية، وكان الجنيه "البندقى" أكثر هذه المسكوكات الذهبية انتشارا حتى منتصف القرن الثامن عشر، أو "شريفى" وهو الجنيه الذهبى المحلى الموازى له فى الوزن والعيار.

ونظرا لندرة المسكوكات الفضية التى سكها العثمانيون بصفة عامة والمصريون بصفة خاصة، اقتصر التعامل بالمسكوكات الفضية إلى حد كبير على المسكوكات الفضية الغربية وأهمها الريال الهولندى الذى أطلق عليه المصريون أسماء متعددة: "الأسدى" نسبة لشكل الأسد الذى يحمله أو "أبو كلب" أو "الكلب الحجار"... وقد انتشر التعامل بهذا النقد حتى نهاية القرن السابع عشر حين أدى تخفيض نسبة الفضة فيه- ٥٠% من وزنه- إلى الانصراف عن التعامل به.

وقد حل محله الريال الإسبانى الذى أطلق عليه المصريون أسماء مختلفة: "ريال"- "قرش ريال"- "ريال حجار"- "ريال مشط".

وإلى جانب الريال الإسبانى انتشر التعامل فى مصر خلال القرن الثامن عشر بالتالر الألمانى الذى أطلق عليه المصريون اسم "أبو طاقة" الذى حرف فيما بعد إلى "بطاقا" أو "ريال بطاقا". أما ما كان يحمل منه صورة الإمبراطورة "مارى تيريز" فكان يسمى "ريال فرنسا".

وبالاضافة إلى المسكوكات المحلية والغربية كانت توجد مسكوكات عثمانية ولكنها كانت تحتل مكانة محدودة فى مجال التداول.

وكان الدينار المغربى ويسمى "ذهب إسماعيل" وهو دينار السلطان مولاى إسماعيل من المسكوكات التى كان التجار المصريون يقبلون عليها فى معاملاتهم التجارية مع المغرب. وكذلك تعامل التجار المصريون بالقرش الحجازى وإن كان تداوله محدودا ولا يتناسب مع حجم التجارة مع الحجاز.

الأحوال الثقافية:

انقسم المجتمع المصرى خلال الحكم العثمانى إلى ثلاث قوى إجتماعية وهى قوى فوقية وتشكلت من الأتراك العثمانيين والمماليك، وقوى متوسطة وتكونت من بعض العلماء والمشايخ وكبار التجار وأرباب الصناعات... وقوى تحتية وهى غالبية الشعب المصرى وتتألف من صغار التجار والصناع والفلاحين وهى القوى المغلوبة على أمرها والمحرومة من كل شئ.

إن هذا الانقسام الأفقى للقوى الاجتماعية كان يقابله إنقسام رأسى فى كل من القوى الثلاث، وبصفة خاصة فى القوى الفوقية ، وكذلك فى القوى التحتية التى إنقسمت إلى طوائف، ولم يكن متيسرا أن يخرج فرد من طائفة إلى أخرى.

وكان من شأن ذلك كله تقسيم المجتمع إلى مجتمعات صغيرة تتسم بالانعزالية، وقد ساعد على ذلك أن الدولة العثمانية كانت ترى أن وظائف الدولة تنحصر فى حدود معينة كتحصيل الضرائب والدفاع عن البلاد والمحافظة على الأمن، ومن ثم لم تحدث الدولة العثمانية أى تغيير جذرى فى حياة المجتمع المصرى رغم استمرار حكمها لفترة تزيد عن الثلاثة قرون.

وما من ريب أن الحياة الفكرية فى مصر تعرضت لأزمة فى نهاية العصر المملوكى أدت إلى إحداث شلل فى حياتها الثقافية وفقدانها لروح الإبداع والتجديد، ثم جاء الغزو العثمانى فلم يحدث لدى المثقفين ردود فعل إنتاجية خصبة.[1]

---

(١)د. محمد أنيس: مدرسة التاريخ المصرى، ص ١٦.

غير أنه من الخطأ أن نتصور أن الحياة العلمية والثقافية كانت راكدة تماما.. حقيقة كان الأزهر هو محور هذه الحياة ومنبعها ومع ذلك فقد امتدت الحياة العلمية إلى الحياة العامة. فكان الباشوات العثمانيون وأمراء المماليك يعقدون فى قصورهم الندوات العلمية والأدبية. وكان مشايخ الأزهر بدورهم يعقدون فى بيوتهم حلقات التدريس لأصحابهم وتلاميذهم ومريديهم[1]، وكانت بعض هذه الحلقات تستمع إليها النساء من وراء ستار وتناسب فيها البخور والعطور... كما كان لبعض هؤلاء المشايخ من خزائن الكتب يختلف إليها الطلاب.

وإلى جانب السيد مرتضى الزبيدى والشيخ الجبرتى، إشتهر فى مصر إبان العصر العثمانى طائفة من المشايخ منهم الشيخ شمس الدين الشرنبابلى شيخ مشايخ الأزهر والشيخ شمس الدين محمد البقرى. كما ظهر فى هذا العهد بعض المؤرخين كمحمد ابن إياس الذى عاصر أواخر العصر المملوكى، وأوائل العصر العثمانى فى مصر والذى يعد كتابه "بدائع الزهور فى وقائع الدهور" من أهم المصادر التى يرجع إليها الدارسون والباحثون. ومن المؤرخين أيضا ابن زنبل الرمال كذلك أبو السرور البكرى فى القرن السابع عشر الذى تعد مخطوطاته المحفوظة فى دار الكتب ومنها "الروضة المأنوسة فى أخبار مصر المحروسة"، و"النزهة الزهية فى ذكر مصر والقاهرة المعزية" من المصادر المهمة فى تلك الفترة. غير أن أهم المؤرخين الذين تمتعوا بشهرة كبيرة هو الشيخ عبد الرحمن الجبرتى صاحب "عجائب الآثار فى التراجم والأخبار" ومظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس.

ومن الظواهر الثقافية فى مصر العثمانية ظاهرة التصوف والطرق الصوفية، التى كانت مصدرا للثقافة العامة بما يتصل بها من التعليم الدينى والعبادة الروحية، وبما ينشده المتصوفة من الأشعار والأذكار. على أن التصوف الذى انتشر فى مصر العثمانية كان أقرب إلى الدروشة منه إلى التصوف النظرى أو الفلسفى[2]. وأنها تتصل بالحياة الاقتصادية والسياسية بدرجة كبيرة. وتفسير ذلك أن

(١)د. السيد رجب حراز: المدخل إلى تاريخ مصر الحديث، ص ٦٤-٦٥.
(٢)د. السيد رجب حراز: المدخل إلى تاريخ مصر الحديث، ص ٦٦.

الطرق الصوفية كانت الوسيلة للهرب من ظلم الحكام وطغيانهم، حيث يلتمس المصريون العدالة فيما وراء الدنيا، أى أن الصوفية- فى مصر العثمانية- هى هروب الفقراء التعساء من الظلم الواقع عليهم، إذ كان الدرويش يأوى بنسائه وأطفاله إلى إحدى الزوايا، ويعيش هناك مع غيره على الأوقاف المحبوسة على الزوايا.. وقد كون أرباب الطرق الصوفية طوائف قائمة بذاتها، وتمتع شيوخها بنفوذ كبير لدى الحكام والشعب على السواء.

الحياة الفنية:

حفل العصر العثمانى بنشاط فنى وعمرانى كبير. حقيقة أنه لم يبلغ فى ذلك شأن العصر المملوكى الذى سبقه، ولكن الكثير من روائعه تبقى شاهدا على أن الفنان المصرى حينما تتاح له الفرصة والإمكانيات قادر على الإبداع. وهناك من يردون أسباب ما يرونه ضعفا إلى اضطرار أعداد كبيرة من الصناع والحرفيين إلى الذهاب إلى الآستانة والحقيقة أن هؤلاء الصناع والحرفيين الذى سافروا إلى عاصمة الدولة بعد وفاة سليم الأول عادوا إلى مصر فى أيام سليمان القانونى وزاولوا أعمالهم السابقة.

الأتراك العثمانيون : –

ينتمى العثمانيون الأوائل إلى إحدى عشائر قبيلة الغز التركية ، والتى تعرف باسم قابى ، وقد هاجرت هذه القبيلة من المشرق إلى الأناضول فى القرن الثالث عشر الميلادى هربا من جنكيزخان ووصلت إلى آسيا الصغرى وبعض شواطئ البحر الأسود وأرمينيا حيث التجأت إلى السلاجقة المسلمين فحموهم وأقطعوهم أراضى لمواشيهم .

وكانوا يعتمدون فى حل ما يواجههم من مشكلات على زعيمهم عثمان الذى ولد على حسب الروايات التاريخية فى عام ١٢٥٨م ، ولما كانت الحروب الصليبية قد دارت رحاها فى ذلك الوقت فقد تطوع عثمان مع بعض رجاله لنصرة بعض سلاطين السلاجقة، وأظهر شجاعة وحسن دراية فاستدعى ذلك مكافأته وتقديره ، فعين حاكما على إحدى المقاطعات ، وبعد وفاة السلطان السلجوقى أعلن عثمان استقلاله[١] ، وبسقوط دولة السلاجقة على يد المغول الايلخانيين تمكنت الإمارة من استقطاب عدد من الإمارات التركية المسلمة فى الأناضول وهى الامارات الناشئة على انقاض دولة السلاجقة واستأنفت توسعها غربا فاتجهت منذ سنة ١٣٤٥م إلى أوربا الشرقية فاستولت على أجزاء كبيرة منها وتوجت أعمالها العسكرية فى عهد محمد الفاتح بفتح القسطنطينية عام ١٤٥٣م .

وما أن انتهى القرن الخامس عشر حتى كانت الدولة العثمانية تشمل الأناضول واليونان وشبه جزيرة البلقان وجزائر بحر إيجة وجزيرة فى جنوب إيطاليا[٢] .

وفى عهد السلطان سليم الأول ١٥١٢–١٥٢٠م اتجهت الفتوحات نحو الشرق ، بعد تحديات الشاه إسماعيل الصفوى لأهل السنة والجماعة ، فدفع ذلك سليما إلى العمل على مد سلطانه إلى الأناضول وبلاد الشام . ولم يكن السلطان سليم يرى كبير فرق بين الشاه إسماعيل وجنده ، وبين أى من حكام أوربا فى عدائهم للإسلام ، خصوصا أن الشاه رسم سياسته التوسعية على أساس التحالف مع البرتغاليين . ولما كان العثمانيون يعدون أنفسهم حماة المذهب السنى فقد اتخذت عملياتهم العسكرية ضد الصفويين شكل التدمير والقسوة البالغة[٣] ، وانتهت بانتصارهم فى جالديران ودخول تبريز عاصمة الصفويين ،

١– ميخائيل مشاقة : مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان ، القاهرة ، ١٩٠٨م ص١٩ .

٢– العراق فى التاريخ ص٥٦٦–٥٦٧ .

٣– أكرم العلبى: دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ٩٠٦–٩٢٢هـ/١٥٠٠–١٥٢٠م ، دمشق ، المتحدة للتوزيع ، الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ص٣٦٨ ..

وزعزعة النفوذ الإيرانى فى المنطقة ، وهز كيان الموالين لهم[1] . وبعد خروج الصفويين من حلبة الصراع بدأ السلطان سليم يوجه جهوده لاخضاع المماليك ، واعداد العدة لتوحيد الجبهة الإسلامية .

: المماليك : -

جلب المماليك من مناطق عدة من أبرزها شبه جزيرة القرم وتركستان وبلاد القوقاز والقفجاق وآسيا الصغرى وفارس والبحر الأسود[2] ، وكان ذلك بطريق الشراء من أسواق النخاسة[3] .

وكان الملك الصالح نجم الدين أيوب أول من اشترى المماليك بشكل مكثف واتخذ منهم جندا بأعداد كثيفة ، وبعد وفاته أفلت زمام الأمور من الأيوبيين وتمكن المماليك من السيطرة على زمام الموقف والقضاء على توران شاه الوريث الشرعى للحكم .

وقد حكم المماليك العديد من البلدان الإسلامية وبخاصة مصر والشام والحجاز ، واستطاعوا حماية ديار الإسلام من المغول الذين تمكنوا من القضاء على الخلافة العباسية والاستيلاء على بغداد فى عام ٦٥٦هـ ، كما تمكنوا من الثبات أمام قوى الصليبيين الذين حكموا العديد من بلاد الشام لفترة ثم أخرجوهم منها .

ونتيجة لحركة الكشوف الجغرافية وتحويل طريق التجارة إلى رأس الرجاء الصالح بدأت أحوال المماليك فى التدهور والضعف بشكل مكن البرتغاليين من هزيمتهم فى موقعة "ديو البحرية" فى عام ١٥٠٩م والاستيلاء على بعض المناطق الاستراتيجية فى البحر الأحمر وتهديد الأماكن الإسلامية المقدسة فى الحجاز وفى خلال ذلك كانت العلاقات المملوكية مع العثمانيين جيدة ، لدرجة أن قام العثمانيون بمساعدة المماليك لتقوية أسطولهم البحرى حتى يتمكن من مواجهة البرتغاليين ، ولكن ذلك لم يستمر طويلا فبعد انتصار السلطان سليم العثمانى على الصفويين بدأ فى التحرش بالمماليك حيث

١- العراق فى التاريخ ص٥٦٨ .

٢- للتفاصيل انظر أبو العباس القلقشندى: صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء جـ٤ ، القاهرة ، ١٩٢٢ ص٤٤٧ .

٣- كان بالقاهرة أسواق لهذا الرقيق تعقد فى خان الخليلى ، وكان للسلاطين عمال يختارون لهم ما يناسبهم من الغلمان كما كان الأمراء والوزراء والقضاه يختارون من شاءوا منهم أناثا وذكورا فيذهبون بالنجباء منهم إلى المدارس يلقنونهم أصول الدين والعلم ثم يدربونهم على فنون الحرب وقيادة الجند .

دمر إمارة "البستان[1]" الواقعة تحت حمايتهم ، وحشد قواته فى مواجهتهم وخاصة أنهم قاموا بإيواء الثائرين عليه ومنهم الأمير جم ابن السلطان محمد الثانى الذى كان يرى نفسه أحق من السلطان سليم بالحكم ، ورفضوا تسليم اللاجئين إليهم .

وبعد أن أرسل السلطان سليم الأول فى يونيو ١٥١٦م برسالة مهينة إلى السلطان قنصوة الغورى يطالبه فيها بأن يلاقيه عند مرج دابق ، أخذ الغورى فى الاستعداد لملاقاة العثمانيين ، وطلب من مماليكه الاستعداد للمعركة ومن قوله فى هذه الشأن "والذى منكم متزوج يطلق زوجته حتى لا يبقى وراءكم التفاتة إذا سافرتم فى التجريدة[2]" كما طلب من الخليفة العباسى فى مصر محمد المتوكل الاستعداد للسفر معه .

ومضى الغورى على رأس جيشه إلى بلاد الشام ، وأناب عنه طومان باى فى مصر ، ووصل الغورى إلى حلب فى يوليو ١٥١٦م ، وحدث قتال شديد بين الطرفين انهزم فيه العثمانيون فى بداية الأمر لدرجة أن هم السلطان سليم بالهرب وخاصة بعد أن قتل من عساكره ما يزيد عن عشرة آلاف[3] ولكن سرعان ما لعبت الخيانة دورها فقد أطلق "خاير بك" نائب حلب - الذى استطاع السلطان العثمانى رشوته وضمه إلى صفوفه- بعض الشائعات بين صفوف المماليك بهدف إحداث الفرقة بينهم ومنها أن السلطان المملوكى أبعد مماليكه الجلبان عن قلب المعركة ، وترك لجنود القرانصة وقودا للحرب ومنها أن السلطان الغورى قتل فى أثناء المعركة فتبلبلت الأفكار ، وشاع الذعر فى صفوف المماليك لدرجة أن اضطربت أحوالهم وأخذ بعضهم فى الفرار ، ولم ينجح الغورى فى السيطرة على الموقف وأفلت منه الزمام ونتيجة لعدم تحمله لصدمة الهزيمة انقلب من فوق جواده على الأرض فاقد الوعى[4] وداسته سنابك خيول العثمانيين المندفعة وراء المماليك المتقهقرين ، فلما رأى ذلك أمراؤه القريبون منه خشوا أن يقع فى أسر العثمانيين فيفصلوا رأسه عن جسده ، ويطوفوا بها فى بلادهم فقرروا قتله بأنفسهم فقطعوا رأسه ورموها فى جب وأخذوا جثته وألقوها فى نهر قريب[5] .

١- لهذه الإمارة أسماء أخرى منها ذو القادر .

٢- للتفاصيل انظر ابن اياس: بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، جـ٣ ، القاهرة ، المطبعة الأميرية ببولاق الطبعة الأولى ١٣١٢هـ ص٥ .

٣- ابن اياس : المصدر السابق جـ٣ ص٤٧ .

٤- ابن زنبل : تاريخ السلطان سليم مع قانصوه الغورى ، جزءان ، مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤٨ .

٥- ابن زنبل : ص ٥٠ .

وانتهت معركة مرج دابق التى لم تستمر سوى يوم واحد وذهب ضحيتها الألوف من الطرفين بتغيير الأوضاع فى العالم الإسلامى فاستولى العثمانيون على بلاد الشام وبدأوا فى التأهب للسيطرة على مصر .

ويرجع أسباب هذا الانتصار إلى عوامل عدة من أهمها :

١- تفوق القوات العثمانية فى سلاح المدفعية الذى لا يمتلكه المماليك .

٢- خيانة خاير بك نائب السلطان الغورى فى حلب .

٣- الوقيعة بين المماليك الجلبان والقرانصة عند احتدام المعارك .

وقد دخل السلطان سليم حلب دون مقاومة ، فأمن أهلها على أرواحهم وأولادهم وأموالهم[١] ، كما دخل دمشق وغيرها من المدن السورية .

وعادت فلول الجيش المملوكى إلى مصر وهم فى أسوأ حال فكانوا ممزقى الثياب، نحيلى الأجسام . وبعد أن وصل نبأ الهزيمة إلى القاهرة اجتمع المماليك لاختيار سلطان جديد يتولى أمور البلاد . واستقرت أمور البلاد فى النهاية على اختيار "طومان باى" . ولما تردد طومان باى فى الأمر خشية الغدر به قام الأمراء بالقسم على المصحف بألا يغدروا به أو يثيروا فتنا ضده[٢] .

وبعد أن علم "طومان باى" بزحف السلطان سليم على مصر ، ووصوله إلى غزة نادى المماليك بالخروج من غير تأخر ، فخرج العسكر مسرعين ، ووقعت معارك عنيفة انكسر فيها المماليك ثم أخذ طومان باى فى إعادة تجميع صفوفه عند الريدانية (بالقرب من العباسية) . ولما أقبلت العساكر العثمانية التقى معها المماليك فى معركة مهولة انتهت بهزيمتهم وانكسارهم[٣] .

ودخل العثمانيون القاهرة بالسيف عنوة فى يوم الجمعة الموافق ٢٣ من يناير ١٥١٧م وخطب للسلطان سليم على منابرها . مع ذلك لم يستسلم طومان باى فقد أخذ يعد العدة للمقاومة واشتبك مع العثمانيين فى عدة معارك ولما لم يتمكن من الظفر بهم احتمى عند أحد مشايخ العربان ولكن الشيخ الذى احتمى عنده تنكر له وسلمه للسلطان سليم فأمر بإعدامه .

١- القرمانى : أخبار الدول وآثار الدول ، القاهرة ، مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٦٢٦ ص٩٩ .

٢- ابن اياس : المصدر السابق جـ٣ ، ص٦٩ .

٣- ابن أياس : المصدر السابق جـ٣ ، ص٩٧ .

ويذكر ابن إياس ان طومان باى طلب من الناس فى أثناء ذهابـه إلـى المشـنقة أن يقرأوا عليه "الفاتحة ثلاث مرات ثم بسط يده وقرأ الفاتحة ثلاث مرات وقرأت الناس معه ثـم قال للمشاعلى اعمل شغلك ... فلما شنق وطلعت روحه صرخت عليه الناس صرخة عظيمـة وكثر عليه الحزن والأسف[1]" .

وباعدام طومان باى انتهت سلطنة المماليك على مصر ، كما انتهت من قبـل علـى الشام بمقتل الغورى ، وخضعت البلاد حوالى أربعة قرون تحت السيادة العثمانية .

أما عن الحجاز فقد خضعت سلما للعثمانيين . فقد أرسل الشريف بركات ابنه أبـانمى إلى السلطان سليم بالقاهرة ليهنئه بانتصاراته على المماليك وحكم مصـر وليعلـن الـولاء للعثمانيين فثبته السلطان سليم على شرافة مكة ، وجعله المتصرف فى أمرها ، كما أضـاف إليه أمور الحسبة بمكة أيضا[2] .

نظام الحكم العثمانى

ارتكز نظام الحكم العثمانى فى العالم العربى على أربعة أمور أساسية هى :

١- الإبقاء على أحوال العالم العربى الاجتماعية والعلمية والاقتصادية والتركيبة السـكانية كما هى قبل الفتح العثمانى لها ، فلم تحاول الدولة العثمانية مثلا صبغ أهل الولايـات العربية التابعة لها بالصبغة العثمانية أو بربطهم برباط الحضارة العثمانية[3] ، كما لـم تحاول فرض اللغة التركية عليهم بدلا من العربية .

٢- عزل العالم العربى عزلا يكاد يكون تاما عن التيارات الاقتصادية والسياسـية العالميـة بحيث لا يتأثر بما يدور فى العالم الخارجى .

٣- كان المجتمع فى نظر العثمانيين عبارة عن قسمين : الأتراك وهم الحكام الذين يتمتعون بكافة الامتيازات ، والرعية وهم المحكومون الذين يتحتـم عليـهم خدمـة الحكـام والاستجابة لمطالبهم .

١- ابن اياس : المصدر السابق ص١١٥ .

٢- ابن اياس : المصدر السابق جـ٣ ، ص١٢٤-١٢٦ .

٣- محمد رفعت رمضان : على بك الكبير ، القاهرة ، دار الفكر العربى ١٩٥٠ ص٦ .

وقد أدى انعزال الطبقة الحاكمة التركية عن الأهالى وتعالى أفرادها عليهم إلى ضآلة تأثير الحكم العثمانى[1] .

٤- ان فكرة الحكم عند العثمانيين كانت ترتكز على أن للدولة وظائف محددة ، ومسئوليتها لا تخرج عن المحافظة على سيادتها ومصالحها فى هذه الولايات أما عن الخدمات العامة مثل التعليم والصحة فانها لا تدخل ضمن مسئوليتها أو اختصاصاتها ، ومن هنا تحددت مهام الدولة العثمانية فيما يلى :

١- الدفاع عن الولايات التابعة للدولة وحفظ الأمن فيها .

٢- جمع الأموال وإنشاء إدارة مالية خاصة بذلك .

٣- إقامة نظام قضائى للفصل فى المنازعات التى تحدث بين الأهالى .

وعلى هذا النحو ارتكزت فلسفة الحكم العثمانى على عدة أنظمة كان أهمها :

الوالى - الديوان - الحامية العثمانية - العصبيات المحلية[2] ، وفيما يلى نعرض لذلك :

أولا : الوالى : -

كان السلطان العثمانى يعين الوالى بصفته نائبا له فى الولاية التى يحكمها وكان يلقب بعدة ألقاب منها لقب الباشا وقد وكلت إليه السلطتان المدنية والعسكرية ومسئولية جمع الضرائب ، فكان على رأس الجهاز الادارى وكان يقود الجيوش بنفسه(٣) ، ويبلغ الرعايا بأوامر السلطان ويقوم بارسال المقررات المفروضة على ولايته إلى الخزانة السلطانية ، ومع كل ذلك فانه نظرا لشكوك السلاطين فى ولاتهم وعدم الثقة فيهم وخشيتهم من الانفصال بولاياتهم عن الدولة العثمانية ، فقد أحاط السلاطين الولاة بجواسيسهم وعمالهم ، وأخذوا ينتزعون منهم العديد من اختصاصاتهم ، فتركزت النواحى المالية فى يد الدفتردار الذى كان يعين رأسا من القسطنطينية ، وتركزت النواحى الادارية فى يد الكتخدا أو الكخيا الذى كان تعيينه يتم بالقسطنطينية ، وكانت السلطة القضائية ينفرد بها قاضى القضاة الحنفى الذى كانت ترسله القسطنطينية ، وإلى جانب

١- محمد أنيس : حضارة مصر الحديثة ص١٤٤ .

٢- محمد عبد المنعم الراقد: الغزو العثمانى لمصر ونتائجه على الوطن العربى ، الاسكندرية ، مؤسسة شباب الجامعة ١٩٦٨ ص٢٦٨ .

٣- أميرة المداح: العثمانيون والامام القاسم محمد فى اليمن ، جدة ، مكتبة تهامة ١٩٨٢ ص١٤٨ .



ذلك كانت الحاميات العثمانية (الاوجاقات) تخضع لسلطة الأغوات الذين لـــم يكـن للوالـى سلطات عليهم[1] ، وكثيرا ما حدثت النزاعات بينهما. يضاف إلى ذلك أن مدة حكـم الـولاة كانت تقتصر على عام واحد يتجدد فى بعض الحالات ولا يستكمل فى حالات أخرى .

ونتيجة لذلك حرص الولاة على جمع كل ما يمكن جمعه من الأموال خلال فترة حكـهم ، وبشتى الطرق ؛ مشروعة وغير مشروعة ، ومحاولة ملء خزائنهم خـلال تلـك الفـترة القصيرة التى يقضونها فى ولاياتهم وخاصة أنهم كانوا يشترون مناصبـهم قبـل توليتـهم إياها . هذا بالإضافة إلى إهمالهم للمشروعات العمرانية والإصلاحية مثل: حفر الـترع أو إقامة السدود أو غيرها[2] .

ثانيا : الديـــوان : -

الديوان كلمة فارسية بمعنى الدفتر أو السجل ، وقد أطلق على المكان أو الدائرة التـى تحفظ فيها السجلات من باب المجاز[3] ، ثم شمل بعد ذلك المكان االذى يحفظ فيه كـل مـا يتعلق بحقوق السلطنة العثمانية من الأموال والأعمال ومن يقوم بها من العمال والجيـوش وكان الديوان ينقسم إلى قسمين :

الديوان الكبير وهو الذى يفصل فى الموضوعات المهمة ، ولا يجتمع إلا بأمر الباشـا ، والديوان الصغير وكان يتألف من الكتخدا والدفتردار وهو الذى ينظر فى شـئون البـلاد العامة ، وينفذ الباشا قرارته[4] .

ويتكون الديوان الكبير من كبار ضباط الحاميـة وعلـى رأسـهم أغـا الانكشـارية والدفتردار والعلماء وكبار المسئولين ، وكانت العضوية فى الديوان غـير ثابتـة ، وكـان الباشا فى معظم الأحيان هو الذى يختار أعضاؤه .

وكان للديوان تأثير كبير فى ادارة الولايات[5] فكان بمثابـة مجلـس وزراء موسـع

١- محمد أنيس : المرجع السابق ص١٤٤ .

٢- للتفاصيل انظر محمد كرد على : خطط الشام جـ٢ ، بيروت ، النهضة العربية ١٩٧٢ ص٢٢٥ .

٣- صبحى الصالح : النظم الإسلامية جـ٢ ، بيروت ، دار العلم ، الطبعة الأولى ١٣٩٦ هـ ص٣١٢ .

٤- محمد فؤاد شكرى : الحملة الفرنسية وظهور محمد على ، القاهرة ، مطبعة المعارف ١٩٦٣ ص١٠-١١ .

٥- كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية - ترجمة نبيه أمين ومنير العلبكى ، بـيروت ، دار العلـم للملايـن ، ١٩٧٩ ص٤٧٧ .

مهمته الرئيسية مراقبة قرارات الوالى والنظر فى الشئون الاقتصادية والادارية ، وتنظيم شئون القوات العسكرية .

ونتيجة لخشية الدولة العثمانية من تمرد ولاتها عليها والاستقلال بولاياتهم جعلت من أعضاء الديوان عيونا لها على الولاة يبلغونها بتصرفاتهم لمنع الولاة من إساءة استعمال سلطتهم .

ثالثا : الحامية العثمانية : -

هى قوة عسكرية عثمانية كانت ترابط فى الولايات وقد أسست هذه الحاميات فى أعقاب الفتوحات العثمانية للوطن العربى ، فبعد أن فتح السلطان سليم الأول مصر ترك بها حامية تتألف من حوالى اثنى عشر ألف جندى يتكون منها ستة أوجاقات على رأس كل منها أغا ، وكانت هذه الحامية تتكون من أخلاط مختلفة من العسكر[1] .

وكانت مهمة الحاميات : حفظ النظام والدفاع عن الولايات ضد أى خطر خارجى، وقمع العربان . كما كان لها اختصاصات سياسية وادارية ؛ فكان رؤساؤها يشاركون الوالى فى الحكم كما كانوا يحضرون اجتماعات الديوان ، وكانت لهم الكلمة المسموعة . وإلى جانب ذلك كانوا يقومون بتوصيل الخراج إلى الآستانة وكثيرا ما حدثت الخلافات بينهم وبين الوالى ، وكان التفوق فى الفترة الأولى من الحكم العثمانى للوالى ، ثم استطاع رجال الحامية بعد ذلك أن يسيطروا على زمام الأمور .

وعندما دب الضعف فى الدولة العثمانية ضعفت الحاميات فى الولايات وفسد أمرها، ولم تعد صالحة لاستتباب الأمن ، بل تحول أفرادها إلى السلب والنهب والأمثلة على ذلك متعددة نذكر منها أن الحامية فى بلاد الشام كانت من أهم أدوات التخريب ، فقد خرج جنودها عن اختصاصاتهم وكثر اعتداؤهم على الأهالى وتطاولوا على أموالهم وأعراضهم وكثرت شرورهم[2] .

وفى عدن ثار الأهالى ضد تسلط الحامية العثمانية وغدرها بأميرهم عامر الطاهرى، فاضطرت الآستانة إلى أن ترسل أسطولا بحريا لم يتمكن من السيطرة على الموقف إلا بصعوبة [3].

١- للتفاصيل انظر الراقد : المرجع السابق ص٢٧٦-٢٧٧ .

٢- محمد كرد على : المرجع السابق ص٢٢٥ .

٣- فاروق أباظة: الحكم العثمانى فى اليمن ، بيروت ، دار العودة ١٩٧٩ ص٢٠ .

وفى تونس أعلن الجنود عصيانهم ، وهددوا النظام باعتدائهم على الأرواح والممتلكات .

وفى مصر ركنت الحامية العثمانية إلى حياة الاستقرار واندمجت فى الشعب المصرى ، وتركت حياتها العسكرية لدرجة أن الحملة الفرنسية حينما هاجمت مصر فى أواخر القرن الثامن عشر لم تجد من يتصدى لها سوى المماليك وحموع الشعب المصرى[1] .

رابعا : العصبيات المحلية : -

كان هدف العثمانيين من إشراك العصبيات المحلية فى الحكم هو الاستفادة منهم فى إدارة الولايات التى يحكمونها وحتى يظلوا على ولائهم للدولة العثمانية ولا يقوموا بالتمرد عليها. ونتيجة لذلك شارك المماليك فى تولى مقاليد بعض الأمور فى مصر ، كما شاركت بعض العشائر العربية فى الشرقية والبحيرة فى حكم المناطق التى تقطنها ، واعترف السلطان العثمانى بالعصبيات الكردية وأبقى حكم كردستان للبيوتات الكردية الحاكمة فى شمال العراق ، كما ترك لمشايخ العراق سلطة إدارة عشائرهم ، ومن أهم هذه المشيخات مشيخات الخزاعل والعبيد وشمر والمنتفق[2] .

والسؤال المطروح هو هل ظلت هذه العصبيات على ولائها للدولة العثمانية أو تحينت الفرص للتخلص من الحكم العثمانى واستقلالها عنه ؟

الواقع أن هذه العصبيات كانت غالبا ما تتطلع إلى استرجاع نفوذها القديم ، ومن هنا أخذت فى استغلال فرص انشغال الدولة العثمانية بمشكلاتها الخارجية والداخلية ؛ ففى مصر استطاع على بك الكبير المملوكى القيام بثورة ضد الدولة العثمانية فى عام ١٧٧١م والانفصال عنها ، ولم يستطع العثمانيون السيطرة على زمام الموقف إلا بعد الوقيعة التى دبروها بين على بك وقائده محمد أبو الدهب .

وفى اليمن استطاعت العصبيات المحلية القيام بثورات متعددة ضد الحكم العثمانى ، تمكنت خلالها من انهاك جيوش الدولة العثمانية حتى اضطرتها إلى الجلاء عن اليمن لفترة[3] .

١- الراقد : المرجع السابق ص٢٧٨-٢٨٠ .

٢- عبد العزيز نوار : داود باشا والى بغداد ، القاهرة ، دار الكاتب العربى ، ١٩٦١ ص١١.

٣- للتفاصيل انظر : فاروق أباظة : المرجع السابق ص٤١٥ .

وفى وسط الجزيرة العربية قامت الدعوة السلفية التى دعت إلى العودة بالإسلام إلى مبادئه الأولى وألقت بتهمة نشر البدع والخرافات فى العالم الإسلامى على العثمانيين.

وفى العراق قامت العصبيات المحلية بالعديد من الثورات ضد الحكم العثمانى مثل ثورة آل مهنا فى جنوب العراق وآل شعيب فى البصرة ، والعشائر الكردية فى كردستان[1].

وفى الشام قامت أسرة آل العظم ، وظاهر العمر بمحاولات للاستقلال الذاتى عن الحكومة المركزية فى استنبول .

ومع كل ذلك فإن خروج هذه العصبيات المحلية على السلطنة لم تقلق الدولة العثمانية كثيرا وخاصة أنها كانت تستطيع الانتظار حتى تحين الفرصة المناسبة فتستعيد نفوذها وعلى سبيل المثال نذكر على بك الكبير وظاهر العمر اللذين استغلا فرصة انشغال العثمانيين فى حروبهم مع الروسيا ونجحا فى الانفصال عن الدولة ورفع راية العصيان ضدها فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، ثم ما لبثت الدولة أن استرجعت نفوذها على المناطق التى كانوا يحكمونها بعد انتهائها من الحرب .

أحوال العالم العربى
فى ظل الحكم العثمانى

بعد أن سيطرت الدولة العثمانية على العالم العربى فى معظمه ، وصارت الدولة الإسلامية الوحيدة فى المنطقة تقريبا ، تحول االعالم العربى إلى منعطف جديد فى النواحى السياسية والاقتصادية والاجتماعية وفيما يلى نعرض لذلك .

١- نوار : المرجع السابق ص١

أولا : الأحوال السياسية :

١ - انتقال مركز الخلافة من القاهرة إلى الآستانة :

بعد هزيمة المماليك أمام العثمانيين انتقل مركز الخلافة من القاهرة إلى الآستانة[١]، واتخذ السلطان سليم الأول لقب الخليفة ليضمن ولاء العرب والمسلمين له على اعتبار أن الخليفة هو فى الواقع خليفة رسول الله وانه يجب على المسلمين طاعته .

٢ - العثمانيون والأماكن المقدسة :

أضفت الدولة العثمانية حمايتها على الأماكن المقدسة لما لها من أهمية دينية ، وحمل السلطان العثمانى ألقاب حامى حمى الحرمين الشريفين ، وخادم الحرمين الشريفين، وهو لقب يكسب من يحمله احترام المسلمين وتقديرهم[٢] ، وكان السلطان سليم الأول قد اتخذ لنفسه هذا اللقب بعد أن أرسل شريف مكة ابنه إلى القاهرة ليبلغ السلطان العثمانى ولاءه واعترافه بالسيادة العثمانية على الحجاز ، وتمسك السلاطين العثمانيون منذ ذلك الوقت بهذا اللقب الدينى[٣] . ولحماية الأماكن الإسلامية المقدسة من أخطار البرتغاليين الذين حاولوا أكثر من مرة النيل منها أغلق العثمانيون البحر الأحمر ، وحولوه إلى بحيرة إسلامية[٤] .

٣ - عدم إشراك العناصر العربية فى حكم بلادها :

ركزت الدولة العثمانية سياستها على أن يبقى العالم العربى فى حوزتها أطول مدة ممكنة ، ولذلك لم يسمحوا للعناصر العربية فى حكم بلادها ، بل قاموا بنشر عوامل الصراع بينها حتى تنشغل عن التفكير فى السلطة يضاف إلى ذلك أن الحكم العثماني كان مركزيا ، فكان السلطان هو السلطة العليا المسيطرة على كافة الأجهزة السياسية والادارية والعسكرية ، وكان السلاطين يرون أن الولايات العربية وما عليها هى من أملاكهم الخاصة ، ولهم حق التصرف فيها على أية صورة ، ولم يكن يهم الدولة سوى جمع الأموال والحاصلات التى صارت نهبا لها ولأتباعها[٥] .

١- الراقد : المرجع السابق ص٢١١-٢١٤ .
٢- الراقد : المرجع السابق ص٢٢٨-٢٢٩ .
٣- عبد العزيز الشناوى : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها جـ١ ص٦٦ .
٤- محمد أنيس: الدولة العثمانية والشرق العربى ، القاهرة ، الأنجلو المصرية ١٩٨٥ ص١٤٤ .
٥- الراقد : المرجع السابق ص٢٦١-٢٦٥ .

٤ – عدم إشراك العرب فى الدفاع عن بلادهم :

بعد الفتح العثمانى للعالم العربى صار الدفاع عن الولايات العربية ضد أية اعتـداءات خارجية من اختصاص القوات العثمانية فأفقد ذلك المواطنين العرب الإحساس بقدرتهم علـى حماية بلادهم[1] .

ثانيا : الأحوال الاقتصادية :

أبقى العثمانيون النظم الاقتصادية القائمة على النظام الاقطاعى قبل حكمهم الولايـات العربية كما هى .

وقد عنى السلطان سليم الأول بمسح الأراضى فى مصر والشام ، وخصـص مقـدارا منها للأجناد ومقدارا لنفقات الوالى ومقدارا للسناجق وما عدا ذلك سمى بالأراضى الديوانية أى التابعة للديوان الأعظم بالآستانة . وقد عد السلطان العثمانى نفسه مالكا لكل الأراضـى الزراعية ، ورأى أن أصحاب الأراضى لا يملكونها بل لهم حق الانتفاع بها فقـط، ونتيجـة لذلك أصبحت الأراضى تؤول عند موت صاحبها إلى الدولة ، إلا أن ورثته يستطيعون ردهـا إلى حوزتهم إذا دفعوا مبلغا من المال للدولة . غير أن ذلك الوضع أخذ يتبدل بمرور الزمـن وبخاصة بعد ازدياد نفوذ بكوات المماليك ، وتمكنهم من تقسيم معظم الأراضى فـى مصـر بينهم فآلت إليهم ملكية ثلث ما يزرع من الأرض ، ووزع الباقى بين الفلاحين والملـتزمين والأوقاف[2] .

وقد قام العثمانيون باتباع طريقة المماليك فى تحصيل الأموال على الأراضى ، باتبـاع نظام الالتزام بالمزايدة ، وذلك بأن يتعهد الملتزم بدفع مقدار محدد من المال كل عـام عـن مساحة محددة من الأرض على أن يحصل من الفلاحين العاملين فى هـذه الأرض كـل مـا يستطيع من أموال ، وإذا هرب الفلاح وقت تحصيل الضرائب تصدر ضده عقوبات صارمة . وقد استخدم الولاة سلطاتهم لجمع كل ما يمكن جمعه من الأموال دون الاهتمام بأى اصـلاح اقتصادى ، فأدى ذلك إلى تدهور الزراعة والتجارة والصناعة وزاد الطين بلة تحول طـرق التجارة العالمية إلى رأس الرجاء الصالح .

١– أنيس : المرجع السابق ص١٤٥ .

٢– عمر عبد العزيز : دراسات فى تاريخ مصر الحديث ، الاسكندرية ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ص١٥٤.

ثالثا : الأحوال الاجتماعية :

نظر العثمانيون إلى المجتمع على أنه ينقسم إلى قسمين : الحكام وهم الأتراك ، والمحكومين وهم الرعية ، وواجب القسم الثانى أن يعمل فى خدمة القسم الأول لإمداده بما يحتاج إليه ، وبعبارة أخرى كان الأتراك يكونون داخل المجتمعات العربية طبقة أرستقراطية عزلت نفسها عن بقية أجزاء المجتمع بحكم فهمها لوظيفتها وإحساسها بذاتيتها، فكان الحكم العثمانى عديم التأثير فى حياة الأهالى(١) ، وخاصة أن العثمانيين لم يشاركوا العرب فى حياتهم الاجتماعية العامة ، ولم يهتموا باللغة العربية وبانعاش آدابها وعلومها ، كما لم يهتموا بعثمنة البلاد فاحتفظ العالم العربى ببنائه الاجتماعى الذى كان سائدا فيه قبل الحكم العثمانى ، فاحتفظت الطوائف الدينية الإسلامية باحترامها ، بصفتهم حماة الشريعة ، وقد نجحت هذه الطبقة فى رد المظالم ، وكانت بمثابة حلقة الوصل بين الطبقة الحاكمة والمحكومة ، كما احتفظت الطبقات المنتجة من التجار والفلاحين وأصحاب الحرف بسماتها السابقة ، فكان لكل طائفة شيخ تخضع لسلطته وينوب عنها لدى السلطات الحكومية ويتولى شئونها ويدافع عنها ويقوم بحل المنازعات بين أفرادها ، ويعاقب كل من يخالف منهم عرف وتقاليد الطائفة عقوبات صارمة ، وكان منصب الشيخ وراثيا وكان لمشايخ الطوائف وكلاء يعرفون بأسم النقباء(٢) . أما فى الريف فكان شيخ القرية يقوم مقام شيخ الطائفة وكان الابن يرث أباه فى مهنته سوأء كان الأب فلاحا أو تاجرا أو صانعا ، أما البنت فتتزوج زميل والدها فى الحرفة وقد أدى ذلك إلى تقوية الرابطة الاجتماعية وتوثيقها(٣) .

أما أهل الذمة فقد ظلوا على هامش الحياة الفكرية والسياسية فى داخل المجتمع العربى وإن كانت لهم مشاركات فى الحياة الاقتصادية بطريقة فعالة .

وعند تقييمنا للحكم العثمانى فى الوطن العربى يتضح ما يلى :

١ - أن الحكم العثمانى كان ضعيفا فى تأثيره على العالم العربى على الرغم من طول مدته التى تجاوزت أربعة قرون ، فلم ينجح العثمانيون فى عثمنة مصر ، بل ما حدث هو أن تمصر العثمانيون وأصبحوا جزءا من الحياة المصرية(٤) .

١- محمد أنيس : المرجع السابق ص١٤٩ .
٢- عمر عبد العزيز : المرجع السابق ص١٥٦ .
٣- أنيس : المرجع السابق ص١٤٩-١٥٠ .
٤- نفسه ص١٤٤ .

٢ – أن الأحوال الاجتماعية والاقتصادية ظلت جامدة وتدهورت الزراعة نتيجة لعدم الاهتمام بمرافقها ، وتدهورت الصناعة وانحصرت فى بعض صناعات بدائية ، كما تدهورت التجارة بسبب اضطراب الأمن ، وسوء طرق النقل ، وضعف القوة الشرائية[١].

٣ – أن الحكم العثمانى كان يستند فى المقام الأول على رجال الدين الذين وقفوا بجانب الدولة العثمانية للاحتفاظ بنفوذها فى الولايات العربية حيث كانوا يصرون على ضرورة الولاء العام للسلطان باعتباره حامى حمى الإسلام .

٤ – ظهور المحلية : أى إن الأفراد كانوا يقومون بتنظيم أمور حياتهم بعيدا عن تدخل الدولة أو أشرافها ففى المدن كان الناس يقسمون إلى طوائف حسب مهنهم ووظائفهم الاجتماعية ، فالطائفة كانت تضم أصحاب المهنة الواحدة وعلى رأسها شيخ يتولى تنظيم شئونها والفصل فى الخصومات بينها وبين الحكومة ، وفى الريف كانت كل قرية تمثل مجتمعا قائما بذاته يكاد يكون معزولا عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية للقرى الأخرى وبعبارة أخرى ان نظام الحكم العثمانى تميز بضعف التدخل الحكومى ، وترك الأهالى وشأنهم فى كل ما يتعلق بأمورهم[٢] ، وقد أدى ذلك فى نهاية الأمر إلى عدم ولاء الفرد للدولة[٣] .

٥ – نجحت الدولة العثمانية فى وقف الأطماع الأوربية فى الوطن العربى لفترة من الوقت ، فقد أوقفت الخطر البرتغالى على البلدان العربية ، ولاحقت فرسان القديس يوحنا وتمكنت من طردهم من ليبيا ، كما كسرت شوكة الأسبان فى غرب حوض البحر المتوسط .

٦ – اعتاد العثمانيون الأخذ ولم يعتادوا العطاء . فلم يهتموا بتحسين أحوال الولايات ، لذلك كان يندر أن يصل من الآستانة رجل صالح فى أخلاقه معروف باستقامته وسعة معرفته يحسن إدارة الأمور ، ويوقف الظالم عن ظلمه[٤] .

١– د. حسين خلاف: التجديد فى الاقتصاد المصرى الحديث ، القاهرة ، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، الطبعة الأولى ١٩٦٢ ص٧ .

٢– محمد شفيق غربال : محمد على الكبير ص٢٣ .

٣– محمد أنيس : المرجع السابق ص٥ .

٤– محمد كرد على : المرجع السابق جـ٢ ، ص٢٦٧ .

الموضوع السادس

الحركات الإنفصالية ضد الدولة العثمانية

أ - فى مصـــــــر : حركة على بك الكبير

ب - فى بلاد الشـــام : ١- حركة ظاهر العمر

٢- حركة أحمد باشا الجزار

إن نظرة متفحصة لأحوال الدولة العثمانية فى منتصف القرن الثامن عشر وبخاصـــة فى الفترة التى قامت فيها حركة على بك الكبير تبين لنا مدى الضعف الذى لحـــق بالدولـــة العثمانية من جراء الضربات التى انهالت عليها من الدول الأوربيـــة وبخاصـــة الروســـيا ، فأوهن ذلك قبضتها على ممتلكاتها وأوجد العديد من الحركات الانفصالية المشابهة لحركـــة على بك الكبير والتى من أهمها حركة ظاهر العمر فى فلسطين ، وحركة الأكراد فى شـــمال العراق والشام ، والثورات فى البوسنة والهرسك والجبل الأسود والافـــلاق والبغـدان[1] ، والنزاع بين الأشراف على إمارة مكة . ونتيجة لذلك أخـــذ بكـــوات الممـــاليك فـــى مصـــر بالاستئثار بالنفوذ والسلطة حتى صار نفوذهم يفوق ســـلطة الباشـــا العثمـــانى ، وأصبـــح لزعيمهم الذى كان يعرف بشيخ البلد الكلمة المسموعة فى البلاد ، وفـــى النهايـــة اســـتغل أحدهم وهو على بك الكبير الفرصة وتمكن من الانفراد بالسلطة فى مصر فى عام ١٧٦٦.

١ - حركة على بك الكبير :

وقبل أن نتناول حركة على بك الكبير بالدراسة لابد لنا من وقفة نعرض فيها لنشـــأته وكيفية وصوله إلى حكم مصر .

الاسم الحقيقى لهذا المملوك هو يوسف بن داود وقد ولـــد فـــى عـــام ١٧٢٨ فـــى بلـــده

١- محمد رفعت رمضان: على بك الكبير، القاهرة ، دار الفكر العربى ١٩٥٠ ص٥ .

أبازة من أعمال القوقاز العثمانى ، وكان والده واحدا من قساوسة الكنيسة اليونانية ، ويرغب فى أن يكون ابنه مثله قسيسا ، ولكن القدر لم يمكنه من ذلك وخاصة بعد أن اختطفت عصابة من قطاع الطرق هذا الابن فى أثناء رحلة صيد كان يقوم بها فى إحدى الغابات وباعوه لأحد تجار الرقيق فسافر به حتى وصل إلى الاسكندرية وباعه هناك بثمن بخس لمدير جمرك الاسكندرية ، وقد قام مدير الجمرك باهدائه إلى ابراهيم بك أحد زعماء المماليك فى مصر[1] وقد اعتنق يوسف الإسلام ، وتسمى باسم على ، وقد أظهر هذا المملوك من ضروب الشجاعة فى ركوب الخيل والتدريبات ما ساعده على الترقى فاكتسب لقب "جن على" ولما بلغ الثامنة عشرة أعتقه أستاذه وولاه سنجقا ، ثم زادت شهرته بعد نجاحه فى الضرب على أيدى البدو الذين كانوا يغيرون على القاهرة ليلا ، فقربه سيده وجعله كاشفا[2] وواصل على بك الترقى حتى وصل إلى منصب شيخ البلد ، وخلال ذلك أخذ على بك فى التودد إلى العثمانيين حتى اكتسب ثقتهم وفى الوقت نفسه نشط فى وضع أتباعه فى المناصب الهامة[3] ، كما نجح فى تقليص نفوذ كل من الحامية والديوان عن طريق توريطهم فى المشاركة فى الحروب الداخلية ، وتأخير رواتبهم بحجة قلة المال .

كما نجح على بك الكبير فى تركيز السلطتين الحربية والادارية فى يده وبخاصة بعد نجاحه فى كسر شوكة العربان فى الوجهين البحرى والقبلى فصار صاحب النفوذ المطلق على جميع أنحاء مصر واستقامت له الأمور حتى خافه الناس وهابه الأمراء وأخذ يدير دفة الأمور كما يشاء[4] . وانتهز على بك فرصة انشغال الدولة العثمانية بحروبها فى الروسيا[5] ، فاستصدر من الديوان أمرا بعزل الوالى ثم تولى الحكم مكانه وأبطل ورود الولاة العثمانيين إلى مصر[6] ، وامتنع عن دفع الأموال إلى الخزينة السلطانية ، وفى عام ١٧٦٨ أحدث تغييرا فى شكل العملة فجعل على أحد وجهيها اسم السلطان ، وعلى الوجه الآخر اسمه .

وعلى الرغم من كل ذلك فمن الصعب القول ان على بك الكبير كان يرغب فى الانفصال عن الدولة العثمانية نهائيا ، بل كان كل هدفه هو الاستيلاء على السلطة فى ظل

١- محمد رفعت رمضان : المرجع السابق ص١٨-١٩ .

٢- محمد فؤاد شكرى : الحملة الفرنسية وظهور محمد على ، القاهرة ، دار المعارف ص١٦ .

٣- الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار جـ١ ، القاهرة ، المطبعة العامرة الشرفية ص٣٨٤.

٤- ميخائيل شاروبيم : الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث ص١٥١ .

٥- محمد فؤاد شكرى : المرجع السابق ص٢٠ .

٥- الجبرتى : المصدر السابق جـ١ ص٣٨٤ .

السيادة العثمانية وخاصة أن الدولة العثمانية كانت تمثل درعا تحمى الولايات الإسلامية من الأطماع الأوربية ويؤكد ذلك ما أورده الجبرتى بقوله "اتفق أن على بك صلى الجمعة فى أوائل شهر رمضان بجامع الداودية فخطب الشيخ عبد ربه ودعا للسلطان ثم دعا لعلى بك ، فلما انقضت الصلاة وقام على بك يريد الانصراف أحضر الخطيب ، وكان رجلا من أهل العلم يغلب عليه البله والصلاح فقال له : من أمرك بالدعاء باسمى على المنبر أقيل لك أنى سلطان ؟ فقال : نعم أنت سلطان وأنا أدعو لك فأظهر الغيظ وأمر بضربه ، فبطحوه وضربوه بالعصى ، فقام بعد ذلك متألما من الضرب ، وركب حمارا وذهب إلى داره وهو يقول فى طريقه بدأ الإسلام غريبا وسيعود كما بدأ ، ثم أن على بك أرسل إليه فى ثانى يوم دراهم وكسوة واستسمحه"[1] .

وقد استطاع على بك الكبير خلال حكمه لمصر أن يخرج البلاد من الدائرة الضيقة التى فرضتها عليه المنازعات وحكم الحكام فبدأ يهتم باقرار الأمن فى البلاد وتنظيم الادارة،كما أخذ يتطلع إلى ما وراء حدود مصر فتحالف مع ظاهر العمر حاكم عكا ، كما عقد اتصالات سياسية مع روسيا واتصل بقائد الأسطول الروسى فى البحر المتوسط وطلب منه امداده بالذخائر الحربية والأسلحة . فاستجاب القائد الروسى لطلبه بغية إنهاك الدولة العثمانية فى حروب داخلية ، واضعاف قدرتها العسكرية ضد الروسيا[2] ، وعلى الرغم من ازدياد نفوذ على بك ، وافتئاته على حقوق العثمانيين فان انشغال السلطان العثمانى بأمور الدولة الخارجية قد أضعف جهوده الرامية إلى التخلص من على بك [3] ، ونتيجة لذلك بدأ على بك الكبير يتطلع إلى ما وراء حدود مصر .

ونتيجة لاختلال أحوال الحجاز فى تلك الفترة تحول انتباه على بك نحو بلاد العرب حتى تتمكن مصر من السيطرة على تجارة البحر الأحمر وشواطئ الهند[4] ، وليجعل من ميناء جدة مقرا لهذه التجارة ، هذا بالإضافة إلى إحرازه للمجد والشهرة بالاستيلاء على الحجاز أرض الحرمين الشريفين[5] .

وقد استطاع على بك الكبير الاستيلاء على بلاد الحجاز بعد أن أرسل قواته بقيادة

١- الجبرتى : المصدر السابق جـ٢ ، تحت عنوان "حوادث عام ثلاث وثمانين ومائة وألف" .

٢- محمد فريد : تاريخ الدولة العلية العثمانية ص١٥٩ .

٣- محمد رفعت رمضان : المرجع السابق ص٦٤ .

٤- Irwin, Eyles : Series of Adventures in the course of Avoyage up the Red Sea Dublin 1780 vol 1 p. 159 .

٥- شكرى : المرجع السابق ص٢١-٢٢ .

محمد بك أبو الذهب[1] إلى مكة ، وتمكن من الاستيلاء عليها فى عام ١٧٦٩ . وفى أعقاب ذلك منح شريف مكة على بك الكبير لقب سلطان مصر وخاقان البحرين[2] فزاد ذلك من شهرته ، وقوة شوكته . وقد شجعت هذه الانتصارات على بك الكبير على المضى فى مشروعاته التوسعية ، فرأى ضرورة اخضاع بلاد الشام لسلطته ، وقد شجعه على ذلك ما يلى :

١ - اضطراب الأحوال فى سورية وثورة حليفه ظاهر العمر .

٢ - انشغال الدولة العثمانية فى حروبها مع الروسيا ، وعدم تمكنها من إرسال النجدات العاجلة إلى بلاد الشام .

٣ - علاقات على بك بالقيصرة كاترين الثانية قيصرة الروسيا واستعدادها لمعاونته ضد السلطان العثمانى ، وظهور الأسطول الروسى فى البحر المتوسط .

٤ - تذمر أهل الشام من العثمانيين نتيجة لفساد الحكم والتفريق بين الأجناس المختلفة .

ونتيجة لذلك أمر على بك الكبير قائده محمد بك أبو الذهب بالزحف على بلاد الشام.

وقد أحرز الجيش المملوكى عدة انتصارات متوالية ، فدخل أبو الذهب غزة فى مارس ١٧٧١ ثم استولى على الرملة وحاصر نابلس ثم تقدم صوب بيت المقدس حتى سلمت له ووصل إلى يافا وعكا حيث قوبل بكل حفاوة ، وبدت بلاد الشام كلها تحت رحمته ، وخلال ذلك لقى أبو الذهب كل معاونة وتعضيد من الشيخ ظاهر العمر الذى ساعده بالنصح تارة وبالامدادات تارة أخرى حتى اضطر العثمانيون إلى التقهقر ، واستطاع أبو الذهب الوصول إلى دمشق[3] ودخلها فى السادس من يونيو ١٧٧١م ، وأتت إليه الوفود تهنئه وتزف إليه التهانى ، ولما وصلت أخبار هذه الانتصارات إلى القاهرة أقيمت الاحتفالات والزينات ، غير أن هذه الفرحة لم تتم فلم يلبث أبو الذهب أن غير موقفه من سيده ، فأعلن العصيان عليه وأصدر أوامره إلى قواته بهدم خيامهم والانسحاب من دمشق ، كما نادى أهالى الشام بالأمان[4] وكر عائدا إلى مصر ، وسحب فى طريق

١- يرجع اطلاق اسم أبو الذهب على هذا المملوك إلى "أنه لما لبس الخلعة بالقلعة ، صار يفرق البقاشيش ذهبا ، وفى حال ركوبه ومروره جعل ينثر الذهب على الفقراء" . الجبرتى: المصدر السابق جـ١ ص٤٢٢.

٢- إبراهيم الطيب : مصباح السارى ونزهة القارى ص٢٣ .

٣- شكرى : المرجع السابق ص٢٤ .

٤- الجبرتى : المصدر السابق جـ١ ص٣٨٥ .

يقضى على الدين الإسلامى ويرغم الأهالى على اعتناق المسيحية ، ونتيجة لذلك ازداد حماس أتباع أبى الذهب وتمكنوا من إحراز النصر على قوات على بك الذى ظل يقاتل حتى أصيب بجرح فى وجهه وسقط من على جواده وأخذ أسيرا ، وبقى فى الأسر سبعة أيام حتى مات فى الخامس عشر من صفر ١١٨٧هـ الموافق ٨ مايو ١٧٧٣م ، وقد شك الجبرتى فى طريقة موته ، فقال: "فأقام سبعة أيام ومات والله أعلم بكيفية موته[١]" .

وبوفاة على بك الكبير أسدل الستار على أكبر محاولة عرفتها مصر للتخلص من السيادة العثمانية واعلان استقلالها واستأثر محمد أبو الذهب بالنفوذ والسلطة بمساندة العثمانيين ، ومعاضدة الباب العالى له حيث "راسل الدولة العثمانية وأظهر لهم الطاعة[٢]" واعترف بسيادتهم على مصر ، ولكن حكمه لم يستمر طويلا حيث وافته المنية فى الثامن من يونيو ١٧٧٥م أثناء محاربته لقوات ظاهر العمر فغير ذلك موازين الأمور داخل مصر.

وقد اختلفت آراء الباحثين حول وفاة أبى الذهب فمنهم من ذهب إلى أنه مات بداء السكتة القلبية ، ومنهم من قال إنه مات بمرض الحمى ، ومنهم من ذكر انه أصيب بمرض خبيث توفى على أثره نتيجة لأنه هدم ديرا للرهبان وقتل من فيه[٣] . وعلى كل حال فبعد وفاة أبى الذهب وقعت البلاد فى حالة من الفوضى فقد شرع كبار أمراء المماليك فى التنازع على السلطة وانقسموا إلى شيع وطوائف ، ولم تهدأ لهم ثائرة حتى تمكن مراد بك وابراهيم بك من الاستئثار بالحكم واقتسام مشيخة البلد وإمارة الحج فيما بينهما ، وفى عهدهما ازدادت أحوال مصر سوءا فقد شاعت فيها الفوضى وانعدم الأمن ، وانفلت زمام الأمور من يد العثمانيين[٤] . ولما خرجت الأمور عن حدودها وتدهورت الأحوال لدرجة أن أصبح الأجانب فى مصر رهينة تصرفات مراد بك وابراهيم بك وأخذا فى ابتزاز قناصل الدول الأوربية وتهديدهم بتخريب كنائس الاسكندرية إذا لم يدفعوا لهما الأموال التى يطلبانها ، تقدمت الدول الأوربية بشكواها إلى الباب العالى فى عام ١٧٨٦ . فأرسلت الدولة العثمانية أسطولا بقيادة حسن قبطان باشا فتمكن من السيطرة على زمام الأمور[٥] ، والدخول إلى القاهرة فى أغسطس ١٧٨٦م والحد من سيطرة هذين المملوكين إلى درجة كبيرة ، وظل الحال على هذه المنوال حتى جاءت الحملة الفرنسية على مصر فى يوليو من عام ١٧٩٨م .

١- الجبرتى : المرجع السابق جـ١ ص٣٨٥ . وانظر أيضا فؤاد شكرى : المرجع السابق ص٣٠.
٢- الجبرتى : المصدر السابق جـ١ ص٤٢٣ .
٣- تاريخ الأمير حيدر : نزهة الزمان فى تاريخ جبل لبنان ، القاهرة ، مطبعة السلام ١٩٠٠م ص٨٢٤.
٤- Charles Roux : L' Angleterre de Suez, et l' Egypte PP. 20-21
٥- IBid : P. 195

عودته جميع الحاميات التى كان قد أقامها فى البلاد التى فتحها[١] . ويختلف المؤرخون فى أسباب ذلك وفيما يلى نعرض لآرائهم :

١ - اجتماع القائد العثمانى عثمان باشا بأبى الذهب فى خيمته واقناعه بأن ما قام به ضد السلطان العثمانى يخالف الشرف والأمانة ، كما أن استيلاءه على دمشق عنوة يخالف الدين وخصوصا أن دمشق من أهم مراكز الحج الرئيسية إلى الحرمين ولا يصح انتهاكها .

٢ - إرسال عثمان باشا صرة ثقيلة من الدنانير إلى محمد أبى الذهب حتى يترك دمشق ويعود إلى مصر[٢] .

٣ - أن أبا الذهب حصل على وعد من السلطان العثمانى بالعفو عنه ، وتوليته شياخة البلد بدلا من على بك الكبير[٣] .

٤ - أن أبا الذهب كان يخشى من غضب الدولة العثمانية بعد أن تفرغ من حروبها مع الروسيا فتقوم بالانتقام منه ومن قواته فى بلاد الشام .

٥ - أن العثمانيين نجحوا فى إثارة النزعة الدينية عند أبى الذهب ، وأوهموه بأن من يعصى السلطان كأنه يعصى الله ورسوله ، كما أثبتوا له أن اتصال على بك الكبير بالروس أعداء الإسلام وانسياقه وراء أفكار كاترين امبراطورة الروسيا كل ذلك يعد خيانة للإسلام والمسلمين .

ولما وصلت أنباء انقلاب أبى الذهب على سيده إلى القاهرة لم يكن هناك متسع من الوقت لتجهيز الجيوش لملاقاته ، ومع ذلك فقد أرسل على بك جيشا لمقاتلته بقيادة إسماعيل بك غير أن هذا الجيش انضم إلى أبى الذهب ، وعندئذ لم يجد على بك مناصا من الانسحاب والالتجاء إلى حليفة ظاهر العمر فى عكا ، ومشاركته فى مواجهة العثمانيين فى بلاد الشام .

وفى بلاد الشام أعد على بك العدة للعودة إلى مصر ، فجمع حوالى خمسة آلاف جندى تقدم بهم لملاقاة أبى الذهب الذى أرسل جيشا لملاقاته يصل تعداده إلى حوالى اثنى عشر ألفا[٤] . وفى الصالحية دارت المعركة الفاصلة وانتصر أتباع على بك فى بداية الأمر، وانفتح الطريق أمامهم إلى القاهرة ، ولكن أبا االذهب لم يلبث أن أثار الحماس فى أتباعه متهما على بك بالكفر والالحاد ، كما رماه بالتحالف مع الكفار لاخضاع البلاد حتى

١- محمد رفعت رمان : المرجع السابق ص١٦٩ .

٢- شكرى : المرجع السابق ص٢٧ .

٣- تاريخ جودت جـ١ ص٣٤٦-٣٤٧ .

٤- شكرى : المرجع السابق ص٢٨-٢٩ .

موقف الدولة العثمانية من توسعات محمد على

فى بلاد الشام

(دراسة فى وثائق عابدين)

تعتمد هذه الدراسة على مجموعة منتقاة من وثائق عابدين الخاصة ببلاد الشام والتى ترجمت من التركية إلى العربية تحت اشراف الحكومة المصرية فى عهد الملك فؤاد بهدف أحياء ذكرى والده إسماعيل وجديه ابراهيم ومحمد على.

والواقع أن بلاد الشام كانت مطمح أنظار محمد على منذ حروبه فى الجزيرة العربية[1] فقد طلب من السلطان إضافة منصب إيالة الشام إلى منصب والى مصر مبررا ذلك بإمكانية جمع الجنود من هناك، وتكوين الجيوش لمحاربة رجالات الدعوة السلفية، ولكن طلبه كان مصيره الإهمال.

ولما قامت حرب المورة كرر محمد على طلبه إلى السلطان بأن يضاف إليه حكم سورية بجانب حكمه لمصر تعويضا عما تكبده من خسائر فى هذه الحرب، ونظرا لرفض السلطان لهذا الطلب للمرة الثانية حاول محمد على ضم هذه البلاد بالقوة لاستغلال مواردها التى تفتقر إليها مصر، وحتى تكون حاجزا حصينا بين مصر والدولة العثمانية إذا ما فكرت الأخيرة فى محاربته.[2]

وعن التوقيت الذى اختاره محمد على لمحاربة السلطان، ومحاولته اقتناص بلاد الشام منه فيمكن القول أنه اختار الوقت المناسب لذلك.

---

[1] أسد رستم: المحفوظات الملكية المصرية- بيان بوثائق الشام- بيروت، ١٩٤٠، ص ١٢٣.

[2] عبد الرحمن الرافعى: عصر محمد على، القاهرة، النهضة المصرية، ١٩٥١، ص ٢٤٤.

ففى الوقت الذى كانت فيه الدول الأوربية منهمكة فى مسائلها الداخليه وتتنازع كل منها السيادة على أوربا بعد تصفية الإمبراطورية النابليونية وفى الوقت الذى أصبحت فيه الدولة العثمانية تمثل رجل أوربا المريض المنهوك القوى نتيجة للثورات الداخلية التى لاحقتها فى كل جانب ولحروبها المتعددة التى خرجت منها منهوكة القوى .

وفى الوقت الذى قامت فيه الدولة العثمانية بتصفية الانكشارية الذين كانوا بمثابة العمود الفقرى للجيش العثمانى انتهز محمد على حاكم مصر كل هذه الفرص لاظهار قوته أمام السلطان محمود الثانى وبخاصة أن جيشه كان فى حالة طيبة ، ولأنه كان قد اجتذب اليه الأمير بشير الشهابى كبير أمراء لبنان فى ذلك الوقت[1] .

وقد تذرع محمد على فى ذلك بنزاعه مع عبد الله باشا الجزار والى صيدا[2] الذى كان قد شجع الآلاف من الفلاحين المصريين الهاربين من عسف جباة ضرائب السلطة فى مصر باللجوء الى ولايته ورفضه تسليمهم اليه[3] فاتهمه بسوء نيته تجاهه ، وعدم وفائه بدين عليه وابتزازه لأموال بعض التجار المصريين واستيلائه على تجارتهم فى بلاد الشام مدعيا أنها لبعض التجار من أهل نابلس[4] ومساعدته على تهريب بعض البضائع من الجمارك المصرية ، ومن هنا قرر ارسال

---

(١) نفسه ص ٢٤٨ .

(٢) ولاية صيدا كانت قاعدتها عكا ولذلك سميت احيانا بولاية عكا .

(3) Dodwell, H. : The Founder of Modern Egypt A. Study of Muhaimmad Ali, Cambridge at the University Press 1931 p. 108.

ويذكر محمد كرد على أن عدد هؤلاء كان ستة آلاف ، وان عبد الله باشا امتنع عن تسليمهم لمحمد على بحجة أن قطريهما يتبعان سلطان واحد .
للتفصيل انظر : خطط الشام جـ ٣ ، بيروت ـــ دار العلم للملايين ١٩٧٠ ص ٥١ .

(٤) اسد رستم : المصدر السابق جـ ١ ص ١٢١ .

حملة لتأديبه ، وعين ابنه ابراهيم باشا قائدا لها وبالرغم من محاولات السلطان العثمانى التدخل لاصلاح ذات البين ورغبته فى اطفـــاء فتيل الحرب بينهما(٥) فان محمد على كان مصرا على تأديب هذا الوالى ، فأرسل طلائع جيشه الى عكا فى ١٤ اكتوبر ١٨٣١ فاستولت فى طريقها على يافا وحيفا دون مقاومة تذكر(٦) ، وفى ٨ ديسمبر من نفس السنة ضربت الحملة المصرية حصارها حول عكا وأرسل ابراهيم باشا انذارا الى والى عكا يطالبه فيه بتسليم القلعة حقنا للدماء(٧) ونتيجة لرفض عبد الله باشا لهذا الانذار أمر ابراهيم باشا بضرب عكا بالقنابل من جميـــع الجهـــات(٨) .

وحرصا على عدم انفلات الأمر من الدولة العثمانية كرر السلطان محاولاته لرأب الصدع بين الجانبين المتحاربين ، فأرسل مندوبا الى محمد على ينصحه بالعدول عن الحرب منعا لسفك دماء المسلمين ، وحرصا على عدم اقلاق الرعية محذرا له من عواقب الاستمرار فى الحرب ولما دارت المفاوضات بين المندوب السلـــطانى ومحمد على تظاهر الأخـــير بالاخلاص للدولة العثمانية ، وألح أن الهدف من حربه هو المحافظة على شرف مصر الخالد واعادة مجدها فى ظل الدولة العثمانية ، وانه فى حربه يحارب حاكما — شبه مستقل — خارجا عن طاعة الدولة(٩) كما ألح

---

(٥) محافظ عابدين . محفظة رقم ١٤ (بحربرا) ملخص الوثيقة رقم (٢١) بتاريخ ١١ ربيع الأول ١٢٤٦ هـ .

(٦) أسد رستم : المصدر السابق جـ ١ ، ص ١٢٨ الوثيقة رقم ٣٤٠ .

(٧) نفسه ص ١٣٩ . الوثيقة رقم ٢٣١ .

(٨) داود بركات : البطل الفاتح ابراهيم وفتحه الشام ١٨٣٢ القاهرة : الطبعة الرحمانية . د.ت ص ٧ ، ص ٩ والجدير بالذكر ان القنابل وقتئذ لم تكن سوى كتل من الحديد والفولاذ المستدير التى تدك وتهدم ولا تنفجر .

(٩) عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق ص ٢٥٠ ، ص ٢٥٣ .

على لسان ابنه ابراهيم بأنه لا مانع من تسوية الموقف اذا قامت الدولة العثمانية بعزل عبد الله باشا والى عكا وتعيين والى آخر حائزا ثقة محمد على .

ولما تعثرت المفاوضات نتيجة لعدم موافقة السلطان على مطالب محمد على ، أمر الأخير ابنه ابراهيم بمواصلة الحرب وتشديد الحصار على عكا حتى يتم فتحها غير آبه بنصائح السلطان ولا بوعيده ، ومن هنا اتهمه السلطان ببذر بذور الفتنة والفساد بين الناس واستصدر فتوى بأن محمد على وابنه ابراهيم قد خانا الدولة ومرقا عن دين الله وذلك لاستنفار الأهالى ضدهما ، كما أمر بعزل محمد على عن منصبه ، مما أحدث ضجة عنيفة داخل الأوساط الدينية فى مصر حول شرعية حكمه ، وقد واجه محمد على هذه الضجة بالعنف فأعدم كل من وصل الى مسامعه أنه أثار هذه الضجة ، ومن بينهم بعض علماء الأزهر [1] .

ونظرا لفشل المحاولات السلمية مع محمد على طلب السلطان من والى حلب اعداد العدة لمحاربته وتأديبه فى نظير تنصيبه حاكما عاما على بلاد الشام ، وأن تكون له اليد الطولى فى تصريف أمورها[2] .

ولكى يتفادى محمد على المصاعب التى يمكن أن تواجه قواته أمام حصون عكا ، وتوفيرا لجهودها القتالية أوعز الى ابنه ابراهيم بمحاولة استمالة أفرادها من جنود عبد الله باشا بالمال عن طريق دفع رواتبهم المتأخرة ووعدهم بالحماية والتأمينات الكافية ولكن ابنه لم يرحب بهذه الفكرة بل رأى أنه من العار فعل ذلك[3]

---

(1) محافظ عابدين : محفظة رقم ٢٣٢ ترجمة الوثيقة رقم (٨) بتاريخ ١٣ رمضان ١٢٤٧ (رسالة من ابراهيم باشا الى محمد على) .

(2) Dodwell : op. cit., p. 110.

(3) محافظ عابدين : محفظة رقم ٢٤١ ترجمة الوثيقة رقم ٤٤ بتاريخ ٣ رجب ١٢٤٧ هـ (مكاتبه من ابراهيم باشا الى محمد على) .

ونتيجة لذلك طلب ابراهيم من والده ضرورة الاهتمام بالأسطول المصرى وتجهيزه بالمدافع والأسلحة اللازمة بعد أن أثبت عدم كفاءته فى دك حصون عكا ، وحتى يستطيع مناوأة الاسطول العثمانى وعرقلة جهوده فى مساعدة المدافعين عن عكا(١) .

وخلال تلك الفترة بدأت الدولة العثمانية استعدادتها للهجوم على القوات المصرية المحاصرة لعكا بهدف تطويقها وطردها من بلاد الشام مما أدى الى تحرج الموقف ، وجعل ابراهيم باشا يتحرك بجزء كبير من قواته لمواجهة الجيوش العثمانية قبل وصولها الى عكا(٢) تاركا بعض القوات أمام عكا لمتابعة حصارها .

وقد نجح ابراهيم باشا فى — خلال حروبه مع القوات العثمانية — انتزاع طرابلس منهم ، وتعقبهم فى حمص وهزيمتهم فى سهل الزراعة مما أوقع الاضطراب فى صفوفهم وألجأهم الى الفرار(٣) .

وخلال غياب ابراهيم باشا عن قواته المحاصرة لعكا انتهز عبد الله باشا الفرصة فأمر بخروج قواته من معاقلها والهجوم على القوات المصرية ، وقد نجح فى تدمير بعض استحكامات هذه القوات وردها الى الوراء ، مما جعل ابراهيم باشا يسرع فى العودة الى عكا ، ويعيد احكام حصارها برا وبحرا .

ولما طال أمد الحصار أرسل ابراهيم باشا رسولا الى والى عكا للتفاوض معه فى أمر الكف عن سفك الدماء ، وبأن يقوم بتسليم القلعة

---

(١) محافظ عابدين : محفظة رقم ٢٣٢ ترجمة الوثيقة رقم ٥٨ بتاريخ ٢٣ رمضان ١٢٤٧ .

(٢) الرافعى : المرجع السابق ص ٢٥٤ .

(٣) سليمان ابو عز الدين : المرجع السابق ص ٨٢ — ٨٣ .

فى مقابل أعطائه الأمان ، لكن عبد الله باشا رفض هذه الفكرة ، وقام رجاله باطلاق نيران بنادقهم على هذا المندوب[1] ، مما جعل ابراهيم باشا يقوم بالهجوم على القلعة فى محاولة منه للضغط على رجالها ، وبالرغم من نجاح جيشه فى الاستيلاء على السور الشرقى من قلعة عكا وتدمير المدافع الموجوده عليه[2] فانه لم يتمكن من احتلال المدينة بل [illegible]ة استبسال المدافعين ، واصابة بعض ضباطه بجراح[3] ، ولتحرج الموقف طلب ابراهيم باشا من الأمير بشير الشهابى القدوم اليه — ومعه بعض قواته — الى عكا للمساعدة ، ولما تباطأ الأمير بشير فى الأمر شكاه ابراهيم الى والده ، فأرسل محمد على الى الأمير بشير كتابا يلومه على تأخره وينذره بسوء العاقبة اذا خالف عهده معه ووعده له وتوعده بأنه اذا أحجم عن الانضمام لابراهيم فانه سيجرد عليه خمسا من الآلايات[4] لتخريب مساكنه وزرع أرضها تينا ، وقبل وصول هذا الكتاب الى الأمير بشير كان قد تحرك على رأس مائه فارس الى عكا[5] .

وبالرغم من ذلك فان محمد على كان قلقا من جراء عدم سقوط القلعة[6] وثبات المدافعين عنها مما جعله يستدعى بعض قواته الموجودة

---

(١) محافظ عابدين : محفظة رقم ٢٣٤ ترجمة الوثيقة التركية رقم ٤٨ بتاريخ ١٠ ذى الحجة ١٢٤٧ (مكاتبة من ابراهيم باشا يكن الى محمد على) .

(٢) أسد رستم وفؤاد البستانى : المصدر السابق ص ٨٣٢ .

(٣) محافظ عابدين : محفظة رقم ٢٣٢ ترجمة الوثيقة التركية رقم ١١٠ بتاريخ ١١ شوال ١٢٤٧ هـ .

(٤) أسد رستم : المصدر السابق ج ١ . الوثيقة رقم ٣٦٢ ص ١٣٥

(٥) داود بركات : المرجع السابق ص ١١ .

(٦) محافظ عابدين : محفظة رقم ٢٣٢ ترجمة الوثيقة التركية رقم ٥٤ . بتاريخ ٢١ رمضان ١٢٤٧ .

فى كريت للمساعدة ، كما فكر فى الحضور بنفسه الى عكا لمراقبة الموقف هنـاك [1] .

والسؤال المطروح هل ترجع الصعاب التى واجهها ابراهيم باشا وقواته الى مناعة أسوار عكا واستبسال جنودها فقد أم أن هناك أسبابا أخـرى .

الواقع أن الخطة التى سلكها الباب العالى ضد محمد على بتجريده من منصبه واباحة دمه ، قد أثارت الرأى العام الاسلامى ضده وشجعت المدافعين عن عكا على الصمود ، وجعلت بعض علماء المسلمين يصبون لعناتهم على محمد على ويتهمونه بالخروج عن طاعة السلطان مما زاد من اصرار والى عكا على المقاومة .

ونتيجة لطول أمد الحصار ، وعدم قدرة القوات المصرية على اقتحام عكا تزايدات الشائعات بين الناس داخل مصر حول مصير الحملة مما جعل محمد على يصدر فى ٨ مارس ١٨٣٢ أوامره المشددة بحرمـان اذاعة أنباء حصار عكا داخل مصر ، وبضرب أعناق مروجى الشائعات ولمـا لم يرتدع بعض المرجفين لأوامره أمر بضرب أعناق أربعة منهم وزج بعشرين آخرين فى غيابات السجون ليكونوا عبرة لكل « الذين لا يستطيعون أن يمسكوا لسانهم » وقد عرضت الحكومة على الناس جثتين كتب عليهما العبارة الآتية « هذا هو العقـاب الذى يحل بمن يقولون السوء عن الحكومة خفية »[2] .

وعن محاولات كل من محمد على وعبد الله باشا لرفع روح قواتهما الموجودة داخل أسوار عكا وخارجها فقد أرسل محمد على أمرا الى

---

(1) محافظ عابدين : محفظة رقم ٢٣٤ ترجمة الوثيقة التركية رقم ٦٧ بتاريخ ١٦ ذى الحجة ١٢٤٧ (مكاتبة من ابراهيم باشا الى محمد على) .

(2) بيير كريبتس : ابراهيم باشا — ترجمة محمد بدران . القاهرة — مطبعة لجنة التاليف والترجمة ١٩٣٧ ص ١٥٩ .

قوانه يبلغهم فيه تحياته وثقته فيهم وآماله الكبيرة التى ينتظرها منهم من حيث اظهار الشجاعة وبذل التضحية والثبات والغيرة والاجتهاد خلال الزحف على عكا مذكرا اياهم بالانتصارات التى حققوها فى العديد من المعارك السابقة ، ومبشرا لهم بقرب سقوط عكا[1] .

أما عن عبد الله باشا ، فقد استصدر من علماء عكا ورجال الدين فيها فتوى تتضمن أن من يموت من عساكر محمد على فمصيره الى النار[2]، ومن يموت من عساكره فمصيره الجنة وقد استند علماء عكا فى اصدار هذه الفتوى على ما أصدرته الدولة العثمانية من أن محمد على وابراهيم باشا قد خانا الدولة ، ومرقا عن دين الله .

ولما كان السيف وامتشاق الحسام هما الطريق الوحيد الموصل لتحقيق النصر ، فقد قام ابراهيم باشا بمعاينة الأعمال العسكرية التى كلف بها جنوده ، واتخذ التدابير اللازمة لسرعة نقل ذخائر جيشه ومهماته الى المواقع الجديدة كما هدد المتخاذلين من ضباطه بالعقاب الصارم[3] وطالبهم بأن يكونوا صناديد عندما يحمى وطيس المعركة ، كما استدعى من الاسكندرية الكولونيل « روماي » الايطالى ، الذى كان قد علا نجمه خلال حصار قلعة موسولينى باليونان ، فوصل مع بعض زملائه الى معسكر عكا وبدأوا فى تغيير شكل الحصار[4] وبناء طوابى المدفعية المناسبة والاقتراب من سور المدينة حتى تصل قنابل المدفعية اليها بطريقة سليمة[5] .

---

(1) اسد رستم وفؤاد البستانى : المصدر السابق جـ ٣ ص ٨٣٤ .

(2) محافظ عابدين : محفظة رقم ٢٣٥ وثيقة رقم ١٤٠ بتاريخ ٢١ محرم ١٢٤٨ هـ .

(3) محافظ عابدين : محفظة رقم ٢٣٤ ترجمة الوثيقة التركية رقم ٦٧ بتاريخ ١٦ ذى الحجة ١٢٤٧ هـ .

(4) داود بركات : المرجع السابق ص ١٣ .

(5) اسد رستم وفؤاد البستانى : المصدر السابق ص ٨٣٤ .

ونتيجة لتدهور الأحوال فى عكا ، وتناقص أفراد حاميتها وقلة المواد الغذائية ، وتفشى الأمراض بين الناس راودت عبد الله باشا فكرة التفاوض مع ابراهيم باشا فى أمر الصلح ، فرفع أعلاما بيض فوق أسوار عكا ، وقد وافق ابراهيم باشا على هذه المبادرة وأمر جنوده بايقاف الضرب خصوصا بعد أن ارسل عبد الله باشا مندوبا عنه للتفاوض(١) ، ونظرا لتعثر المفاوضات عدل حاكم عكا عن فكرة الصلح وبخاصة بعد أن ابلغته الحكومة العثمانية بقدوم قوات جديدة من جيشها لمساندته(٢) ونتيجة لذلك أمر ابراهيم باشا جيوشه باستمرار اطلاق النار على عكا حتى يتم فتحها عنوة(٣) ، وقد أخذت هذه القوات تصلى عكا نارا حامية ليلا ونهارا لمدة ثلاثة أيام متتالية وبعدها قاد ابراهيم باشا الهجوم على عكا ، وبعد كر وفر تمكنت القوات المهاجمة من الصعود الى القلعة عن طريق برج الباب وناحية الزاوية وأخذت فى التشديد على المدافعين حتى ضعفت مقاومتهم(٤) وظهر الضجر والسآمة عليهم وسقط العلم من أيديهم وتم احتلال القلعة(٥) فى ٢٧ مايو ١٨٣٢ ، وبذلك زالت أكبر العقبات أمام القوات المصرية الزاحفة على بلاد الشام بعد صمود دام أكثر من ستة شهور .

ونتيجة لدخول القوات المصرية مدينة عكا وصل وفد من أعيانها وعلمائها الى ابراهيم باشا طالبا الرحمة والعفو والأمان ، فوافق ابراهيم على طلبهم ، ووعدهم بتأمين الأهالى فى أرواحهم وأموالهم(٥٦)

---

(١) حيدر الشهابى : من تاريخ الأمير حيدر المسمى الروض النضير ج ٢ ، القاهرة . مطبعة السلام . ١٩٠١ ص ١٠٢٢ .

(٢) سليمان ابو عز الدين : المرجع السابق ص ٨٠ .

(٣) حيدر الشهابى : المصدر السابق ص ١٠٢٥ .

(٤) محافظ عابدين : محفظة رقم ٢٣٤ ترجمة الافادة رقم ١٣٠ بتاريخ الأحد ٢٧ ذى الحجة ١٢٤٧ هـ .

(٥) محافظ عابدين : محفظة رقم ٢٣٤ ترجمة الوثيقة التركية رقم ١٥١ بتاريخ ٣٠ ذى الحجة ١٢٤٧ هـ (مكاتبة من ابراهيم باشا الى سامى بك) .

التنافس على الخديوية المصرية

بين الامير حليم والخديو توفيق

د . عبد المنعم الدسوقى الجميعى
كلية التربية بالفيوم ــ جامعة القاهرة

بعد أن تولى اسماعيل عرش مصر وجه جهوده الى تغيير نظام توارث العرش الذى فرضته تسوية ١٨٤١ والذى يقضى بأن يؤول حكم مصر الى الاكبر فالاكبر من ذرية محمد على ، فسعى الى الباب العالى حتى ينحصر حكم مصر فى ذريته .

ويدفعنا رغبة اسماعيل فى تغير نظام الوراثة الى التساؤل عن الباعث الذى كان وراء ذلك ؟

لقد كانت هناك خلافات حادة بين اسماعيل من ناحية وبين أخيه من أبيه مصطفى فاضل وعمه عبدالحليم[1] من ناحية أخرى ولم يكن اسماعيل يخفى كرهه لهما وحقده عليهما ، وكان الاميران أيضا لا يكتمان من ناحيتهما كراهيتهما لاسماعيل ، ومن أجل ذلك سعى فى حرمانهما من وراثة العرش وجعلها فى ذريته من صلبه[2] فاتصل بحاشية السلطان وأخذ ينفق الاموال الطائلة ويجزل العطايا لأرباب

---

(١) هو الأمير محمد عبد الحليم بن محمد على الكبير . وقد ولد فى عام ١٨٢٦ وكان بحسب فرمان الوراثة الأول احق بالعرش من الخديو توفيق للتفاصيل انظر : الرافعى : الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى ، القاهرة ــ النهضة المصرية . الطبعة الثانية ص ٦٦ .

(٢) نفسه ص ٧٤ .

التنافس على الخديوية المصرية

بين الامير حليم والخديو توفيق

د . عبد المنعم الدسوقى الجميعى
كلية التربية بالفيوم — جامعة القاهرة

بعد أن تولى اسماعيل عرش مصر وجه جهوده الى تغيير نظام توارث العرش الذى فرضته تسوية ١٨٤١ والذى يقضى بأن يؤول حكم مصر الى الاكبر فالاكبر من ذرية محمد على ، فسعى الى الباب العالى حتى ينحصر حكم مصر فى ذريته .

ويدفعنا رغبة اسماعيل فى تغير نظام الوراثة الى التساؤل عن الباعث الذى كان وراء ذلك ؟

لقد كانت هناك خلافات حادة بين اسماعيل من ناحية وبين أخيه من أبيه مصطفى فاضل وعمه عبدالحليم[١] من ناحية أخرى ولم يكن اسماعيل يخفى كرهه لهما وحقده عليهما ، وكان الاميران أيضا لا يكتمان من ناحيتهما كراهيتهما لاسماعيل ، ومن أجل ذلك سعى فى حرمانهما من وراثة العرش وجعلها فى ذريته من صلبه[٢] فاتصل بحاشية السلطان وأخذ ينفق الاموال الطائلة ويجزل العطايا لأرباب

---

(١) هو الأمير محمد عبد الحليم بن محمد على الكبير . وقد ولد فى عام ١٨٢٦ وكان بحسب فرمان الوراثة الأول أحق بالعرش من الخديو توفيق للتفاصيل انظر : الرافعى : الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى ، القاهرة — النهضة المصرية . الطبعة الثانية ص ٦٦ .

(٢) نفسه ص ٧٤ .

الدولة ويتزلف الى أصحاب الحل والعقد هناك ويشكو لهم ما يدبره أخوه وعمه له من مكائد ، واتهمهما بأنهما يعملان على قتله •

وقد اغتنم حكام الآستانه فرصـــة التنـــافس على الســـلطة بين اسماعيل وأخيه وعمه فأخذوا يبتزون الأموال من سائر المتنافســـين ولكن اسماعيل هو الذى فاز فى مسعاه لأنه كان أكثر مالا وأرسل اليه السلطان فرمانا يقضى بأن تنحصر خديوية مصر فى ذريته ونتيجة للصراع بين اسماعيل وابن أخيه وعمه آثر أخوه مصطفى فاضل مغادرة البلاد والاقامة فى باريس تارة والآستانة تارة أخرى ومع ذلك لم يهدأ للخديو اســـماعيل بال حتى باع له أخوه كل ما يملكه من أراضى وأمـــلاك فى مصر[٣] •

وقد أخذ الأمير مصطفى فاضل يحيك الدسائس لأخيه من الخارج [illegible] أيضا على حكومة السلطان لتغييرها فرمان الوراثة فانضم الى أحرار تركيا الذين كانوا يعملون على قلب نظام الحكم ، والتخلص من استبداد السلاطين ، ثم ما لبث أن اعتراه مرض الاستسقاء فمات فى عام ١٨٧٥[٤] •

أما البرنس حليم فقد ظل فى قصره بشبرا ممـــا أثار مخـــاوف الخديو اسماعيل منه فأخذ يضيق عليه وعلى حاشـــيته والمقربين اليه حتى انزوى بعيدا عن الناس[٥] ، ولم يكتف اسماعيل بذلك بل طلب

---

(٣) امين سامى: تقويم النيل وعصر اسماعيل باشا . المجلد الثانى من الجزء الثالث . القاهرة — دار الكتب المصرية ١٩٣٦ ، ص ٤٥٠ •

(٤) الياس زاخورة : مرآة العصر فى تاريخ ورسوم اكابر الرجال فى مصر ج ١ القاهرة — المطبعة العمومية ١٨٩٧ ص ٥٩ •

(٥) ميخائيل شاروبيم : المرجع السابق ج ٤ ص ١٤٤ •

Douin : Histoir Du Regne Du Khedive Ismail. vol II Souiété Royale De Géographie D' Egypte le Caire. 1933 p. 90.

من عمه مغادرة البلاد ، ولما رفض طلبه اتهمه اسماعيل بالتآمر ضده ، وأصدر أمرا بابعاده « عن الديار المصرية والسفر الى المكان الذى يريده » بحجة أن تواجده فى مصر يتسبب عنه اختلال الأمن ، وتدهور النظام فى البلاد .

وقبل أن يغادر حليم البلاد باع جميع أملاكه للخديو اسماعيل بحجة كتبت فى ١٤ أبريل ١٨٦٦ ، كما باع له أيضا جميع أملاكه المنقولة التى يملكها فى القطر المصرى[٦] . وفى مقابل ذلك حدث اتفاق بين اسماعيل وحليم فى ١١ يوليو ١٨٧٠ يقضى بأن يتقاضى البرنس حليم مبلغ ثلاثين ألف جنيه تصرف له بمقتضى ثمانين « بون » يتم صرفهم على أربعين سنة بواقع بونين سنويا فى نظير أن يتنازل البرنس عن أراضيه وامتيازاته وحقوقه فى المواريث الشرعية التى تؤول اليه من الأقارب[٧] ، وألا تطأ قدمه أرض وادى النيل .

ونتيجة لهذا الاتفاق غادر البرنس حليم القاهرة الى الاسكندرية قاصدا الاستانة[٨] : وبذلك تخلص اسماعيل من منافس أرق عليه

---

(٦) اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار جـ ٢ القاهرة ـ الطبعة الأولى ص ٣٧١ .

(٧) دار الوثائق . محافظ مجلس النظار . محفظة رقم ٥ أ محاضر جلسات مجلس النواب من اكتوبر ١٨٧٨ الى ديسمبر ١٨٧٩ تحت عنوان « مسئلة البرنس حليم باشا » .

(٨) الوقائع المصرية العدد ٤٧٧ فى ١٠ اكتوبر ١٨٧٢ .

وقد حافظ اسماعيل على تنفيذ هذا الاتفاق حتى عندما اتخذ الأوربيون من حليم إداة ارهاب ضد الخديو ، ولكن هذا الاتفاق لم يلبث أن الغى بعد عزل اسماعيل ، فقد قرر مجلس النظار ايقاف صرف البونات الموجودة طرف البرنس حليم ابتداء من عام ١٨٨٠ ، واعادة حقوق المواريث التى كان قد تنازل عنها الى الخديو اسماعيل ابتداء من مايو ١٨٨٠ .

انظر : محافظ مجلس النظار ، المحفظة السابقة الذكر .

وقد احتج حليم على ايقاف ما تم الاتفاق عليه لدى بعض الحكومات الأوربية وطلب الحضور الى مصر ليعرض قضيته بنفسه ؛ ولكن الخديو ورجال حكومته رفضوا طلبه ، ورغم أن بعض انصاره روجوا له هذه الفكرة فى أوربا فان احتجاجه ذهب سدى .

روز شتين : المرجع السابق ص ١٠٤ .

حياته ، وكان تواجده بمصر مصـــدر ازعاج له وسيف مسلط فوق رأســـه .

ورغم ذلك فلم يهنأ اسماعيل بالاستمرار فى حكم مصر فبسبب سوء ادارته للبلاد حاولت الدول الأوربية اقناعه بالتنازل عن العرش لابنه توفيق ، كما رغب السلطان فى خلعه وتوليه البرنس حليم مكانه ، واعادة نظام الوراثة الأول طبقا لتســوية ١٨٤٠ — ١٨٤١ ، ولكنه رأى أن ذلك يتطلب تعضيدا معنويا من جانب فرنسا وانجلترا خاصـة اذا ما توجه حليم الى مصر فى حراسة قوة عثمانية لاحلاله بالقوة محل اسماعيل[٩] .

ولـما رفض اسماعيل طلب انجلترا وفرنسا رســميا التنازل عن الحكم لابنه توفيق لجأت الدولتان وانضمت اليهما المانيا الى تهـديده بتغيير نظام وراثة العرش فى غير صالح ابنه توفيق ، وذلك بتوليــه البرنس حليم بدلا منه[١٠] .

وعلى كل حال فقد حسم الأمر بصـدور قرار الســلطان بخلع اسماعيل لسوء حكمه واسرافه ، وتولية ابنه توفيق مكانه ، ونتيجة لذلك تجددت آمال البرنس حليم فى اعتـلاء عرش مصر ، حيث كان حليم يعتقد أنه أكثر كفاية من توفيق فى تولى هــذا المنصب ، ومن هنا بدأ الصراع بينهما ؛ وقد انتهـز حليم فرصـــة أن الخـديو توفيق كانت تنقصه التجــارب فى حــكم البـــلاد ، ويتردد فى اتخــاذ القرارات ، ويستسلم فى بعض الأوقات الى حد الاستكانة[١١] يضــاف الى ذلك

---

(٩) د. احمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق ص ٢٠٥ .

(١٠) د. محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان — تاريخ وحدة وادى النيل السياسية فى القرن التاسع عشر ١٨٢٠ — ١٨٩٩ القاهرة — دار المعارف ١٩٦٣ .

(١١) دار الوثائق : الارشيف النمساوى ، محفظة رقم ١٧ ملحق تقرير الكونت هنجلمولر ص ٧ .

كراهية العسكريين له واتهامهم اياه بعدم الكفاية لادارة الحكومة ، وعدم انصافه بحرمان المصريين من الرتب العسكرية ومحاباة الأتراك وغيرهم بها(١٣) .

انتهز حليم موقف الضعف هذا من جانب توفيق وأخذ يسعى للعودة الى مصر ، ومن أجل ذلك أخذ يتصل برجال المابين لاقناع السلطان بذلك .

وخطى حليم خطوة أخرى لتحقيق أهدافه ، فعندما قامت الثورة العرابية حاول استغلال أحداثها للوصول الى عرش مصر فجند بعض أتباعه أمثال يعقوب صنوع وحسن موسى العقاد وعبد السلام المويلحى للاتصال بالعرابيين وترويج أفكاره واظهار أحقيته بعرش مصر من توفيق ، وقد قام يعقوب صنوع بالدعاية للبرنس حليم عن طريق جريدته « أبو نظارة زرقاء » التى كان يصدرها من باريس و « تدخل مصر بطرق مختلفة وتوزع سرا ومجانا بين صفوف الجيش المصرى »(١٣) .

وكانت هذه الجريدة تبث الدعاية للبرنس حليم ، وتهاجم توفيق ونشر يعقوب صنوع فى جريدته ثلاثة صور رمزية احداها تمثل الماضى (اسماعيل) والثانية تمثل الحاضر (توفيق) والثالثة تمثل المستقبل وهى صورة حليم باشا ، كما أنه هاجم الخديو توفيق ونعته بأقبح النعوت مثل « الواد الأهبل الخسيس » والذى « خان الأوطان وباع

---

(١٢) محافظ الثورة العرابية : محفظة رقم ١٣ قضايا المتهمين — دوسيه ٢٣٠/جـ .

(١٣) دار الوثائق : البرقيات المتبادلة بين القاهرة والاستانة اثناء الثورة العرابية .

رعيته كالغنم للإنكليشمن »[١٤] أما عن البرنس حليم فقد وصفه بالسيد الحبيب القريب الى قلب سائر المصريين[١٥] وبأنه فريد عصره[١٦] ، كما ذكر المصريين بأنه ابن المؤسس الأول للحكومة المصرية[١٧] يضاف الى ذلك أنه أشاد بحليم وندد بالخديو توفيق فى أسلوب رمزى قائلا: « ربنا كريم حليم يجيب لنا الفرج عن قريب لأن « توفيق » فرعون ما احناش عاوزينه دا واد أهبل »[١٨] .

ولم يقتصر نشاط يعقوب صنوع على التشهير بالخـــديو توفيق والدعوة لحليم فى الصحف بل تطرق ذلك النشاط الى المسرحيات ففى مسرحية « الواد المرق وأبو شادوف الحدق » أوضح يعقوب صـــنوع عن أمله فى انتصـــار الفلاحين المصريين على يد البرنس حليم وندد بالخديو توفيق ، وذكره بما حدث لوالده وأشاد بحليم فقال « الظالم يا توفيج آخرته ده والكريم الحليم يحميه رب البرية »[١٩] .

---

(١٤) جيمس سانوا : مصر للمصرين . باريس — العدد العاشر ١٨٨٩ كما اطلق يعقوب صنوع على الفلاح المصرى اسم « ابو الغلب » وصـــور مصر بالبقرة الحلوب وتوفيق بيحلبها ، وفى يده كوز ويقول لوالده اسماعيل: « يابابا ما بينزلش من بزها ولا نقطة لبن » فقام ابو الحلم (يقصد البرنس حليم) بنتشه من ذراعه وهو يقول له حرام عليك يا كافر خليها تشم نفسها . ده ابوك مش حلبها بس دا مصها والا ما كانش يتنازل عنها ويتركها لك يا مطيور » .

انظر : جيمس سانوا . أبو نظارة زرقاء — العدد الأول من السنة الثالثة فى ٢١ مارس ١٨٧٩ .

(١٥) ابو نظارة زرقاء : العدد الرابع فى ٢٤ أبريل ١٨٨٦ تحت عنوان « حلم ابى نظارة » وايضا د. ابراهيم عبده : ابو نظارة امام الصـــحافة الفكاهية المصورة وزعيم المسرح فى مصر ١٨٣٩ — ١٩١٢ القاهرة — مكتبة الآداب . الطبعة الأولى ١٩٥٣ ص ٥٥ .

(١٦) ابو نظارة زرقاء العدد الثانى عشر فى ١٨ ديسمبر ١٨٨٦ .

(١٧) ابو نظارة زرقاء . عدد ٩ يونيو ١٨٨٢ .

(١٨) د. ابراهيم عبده : المرجع السابق .

(١٩) عبد الحميد غنيم : صنوع رائد المسرح المصرى ، القاهرة — الدار القومية للطباعة والنشر ص ٥٣—٥٨ .

أما حسن موسى العقاد فقد كان يجمع التوقيعات من الأهالى بعزل الخديو توفيق وتولية البرنس حليم ويرسلها الى السلطان وكان يجرى الترتيبات اللازمة لقدوم حليم باشا الى مصر[٣٠] ويتصل بالعرابيين من أجل ذلك ، كما أنه كان ينشر الشائعات بين الأهالى بخصوص موافقة السلطان والدول الأوربية على تولية حليم باشا وعزل توفيق[٣١] ، وكانت الأميرة زينب هانم شقيقة الأمير حليم ترسل اليه «مبالغ وافرة بحوالات على يد وكيلها عثمان فوزى باشا لأجل أن يدفعها لكبار رجال الحزب الوطنى حتى يكونوا مع حليم باشا » وكان حسن موسى العقاد يقدم هذه المبالغ فى شكل هدايا[٣٢] . مودعة به من جانب الأميرة زينب هانم وعثمان فوزى لحساب حسن موسى العقاد ولتكون هذه الأموال تحت تصرفه من أجل استخدامها فى الاعداد لعودة حليم الى عرش مصر[٣٣] .

وقد يدفعنا اتصال حسن موسى العقاد بالبرنس حليم الى التساؤل عن الطريقة التى تم بها ذلك ؟

الواقع أن حسن موسى العقاد كان ضمن أعضاء جمعية المعارف التى تكونت فى عام ١٨٦٨ ، وأنه عن طريق محمد عارف باشا رئيس هذه الجمعية تمت الاتصالات بين العقاد وغيره من أعضاء الجمعية بالبرنس حليم[٣٤] .

---

(٢٠) محافظ الثورة العرابية : محفظة رقم ١٠ دوسيه ١٢٣/ب .

(٢١) نفسه .

(٢٢) اسماعيل سرهنك : المرجع السابق ج ٢ ص ٤١٣ .
وللامثلة على ذلك انظر : محافظ الثورة العرابية ــ محفظة رقم ١٠ دوسيه ١٢٣/ب .
وأيضا :
Broadley : How We Defended Arabi and his Friends p. 359.

(٢٣) د. لطيفة سالم : القوى الاجتماعية فى الثورة العرابية . القاهرة الهيئة العامة للكتاب ١٩٨١ ص ٣٤٦ .

(٢٤) الرافعى : عصر اسماعيل ج ١ ص ٢٤٤ .

وقد ترددت الشائعات بأن عزل الخديو متفق عليـه بين نواب الأمة ، وأن هؤلاء النواب سوف يصدرون قرارا من الأمة المصرية بخلعه وتنصيب حكومة جمهورية يكون عرابى رئيسها[٢٥] . وقال البعض أن الباب العالى سيقوم بتنصيب الأمير عباس حلمى نجل الخديو توفيق مع تعيين قائمقام ينوب عنه فى الوزارة ، وذهب البعض الآخر الى أن الدول الأوربية عدا فرنسا ترغب فى اعادة الخديو السابق اسـماعيل الى الحكم[٢٦] ، وقال آخرون أن البرنس حليم هو الذى سيعين خديويا على مصر والدول الأوربية موافقة على ذلك عدا انجلترا[٢٧] وان البرنس حليم سيصل من الآستانة الى القاهرة[٢٨] بعد اقناع انجلترا بذلك ،

(٢٥) محافظ الثورة العرابية ، محفظة رقم ٨ دوسيه ٥٣/٢/٧ .

(٢٦) محافظ الثورة العرابية : المحفظة السابقة الذكر .

والواقع ان الشائعات حول عودة الخديو السابق اسماعيل قد ترددت فى تلك الفترة ، وقد ذكرت هذه الشائعات ان اسماعيل اعتزم العودة الى مصر بتأييد من الأجانب ليعلن استقلاله ، كما أنه حرض الشريف عبد المطلب لاعلان خلافته فى الحجاز ، وانه ارسل شخصا اسمه واصف الى لنـــدن لشراء اسلحة .

انظر : محافظ ابحاث ، محفظة ١٦٤ عابدين — ملف ثابت باشـا مذكرة من ثابت باشا بتاريخ ٧ محرم ١٢٩٩ .

كما ذكرت شائعة اخرى ان شخص اسمه بارات اوفد من طـرف اسماعيل الى مصر ، وهناك شائعة تذكر أن اسماعيل ارسل أسلحة الى جمارك مصر .

محافظ ابحاث — محفظة ١٦٣ عابدين — ملف ثابت باشا . تلغراف من الخديو الى ثابت باشا .

ويذكر احمد شفيق ان المسيو ماكس لافيزون الفرنسى ، والشـيخ البحراوى من العلماء ، ومحمد راتب السردار وغيرهم كانوا يسعون لاعادة اسماعيل الى عرش مصر .

احمد شفيق : مذكراتى فى نصف قرن ج ١ القاهرة — مطبعة مصر ١٩٣٤ ص ١٢٣ .

(٢٧) محافظ الثورة العرابية . محفظة رقم ١٠ دوسيه ١٢٣/ب تحت عنوان الأوراق المضبوطة لدى حسن موسى العقاد .

(٢٨) نفســه .

وذهب البعض الى أن عثمان باشا نجل الامير مصطفى فاضل قد ذهب الى أوربا لاقناع بعض دولها على تقليده عرش الخديوية موضحا أحقيته فى ذلك[٢٩] .

والواضح أن أكثر الشائعات ذيوعا كانت الشائعة الخاصة بحضور البرنس حليم الى مصر فقد كانت هذه الشائعة تقع بين الناس موقع القبول والصدق ، وكانوا ينتظرون حصولها من وقت لآخر[٣٠] وساعد على ذلك أن البرنس حليم كان له اتباع كثيرون فى مصر يروجون له بين الناس هذه الشائعات[٣١] حتى بلغ امر بأن تبنى دعوتهم أحد علماء الازهر وهو الشيخ عليش مفتى السادة المالكية الذى طالب بالدعوة الى تعيين حليم باشا خديويا على مصر بدلا من توفيق[٣٢] .

ونتيجة لتداول الشائعات ضد الخديو توفيق فى مصر أبلغ الخديو قناصل الدول بالموقف وأوضح لهم أن أخبارا وصلته تبين أن العسكريين ينوون عزله واعلان حليم باشا خديويا على مصر[٣٣] .

كما أرسل الخديو تلغرافا الى الاستانة يعبر عن استيائه من هذه الشائعات ، ويؤكد وثوقه كل الثقة « بالحضرة السلطانية وبجميع أركان دولته العظام » . كما أوضح الخديو فى تلغرافاته أن « حليم باشا مكروه ومبغوض عند جميع أهل مصر . ومعروف عند جميع العلماء بأنه

---

(٢٩) محافظ الثورة العربية ، محفظة رقم ٨ دوسيه ٥٣/د/٧ .

(٣٠) محافظ الثورة العرابية . محفظة رقم ١٠ دوسيه ١٢٣/ب .

(٣١) محافظ ابحاث . ملف ثابت باشا . تلغراف من الخديو الى ثابت باشا فى ٥ محرم ١٢٩٩ .

(٣٢) محافظ ابحاث ، محفظة ١٦٣ عابدين ، تلغراف بتاريخ ٦ يونية ١٨٨٢ .

(33) Blunt : Secret History of the English Occupation of Egypt London p. 297.

لا دين له[٣٤] وأن العلماء فى مصر قد عقدوا اجتماعا أوضحوا فيه ذلك[٣٥] ثم عبر الخديو عن خضوعه وولائه التام للسلطان حتى ذكر أنه « راغب فى أن يمسح وجهه فى تراب قدمى جلالة السلطان »[٣٦] .

والواضح أن السلطان عبد الحميد لم يكن لديه أى نوع من الثقة فى الخديو توفيق ، وانه كان يرغب فى احلال حليم محله[٣٧] ، وقد ساعد على ذلك وجود حليم فى الاستانة واتصالاته برجال المابين .

ومن وثائق الثورة العرابية يتضح أن مجلس النظار العثمانى اجتمع للنظر فى مسألة عزل الخديو توفيق . وتولية البرنس حليم وبعد المداولة فى هذا الأمر استقر الرأى على وجوب خلع الخديو توفيق من الخديوية المصرية وتولية البرنس حليم ، وتم عمل قرار فى هذا الخصوص ولكن معارضة فرنسا الشديدة لتدخل السلطان فى شئون مصر[٣٨] واقتراحها بعقد مؤتمر فى الاستانة لتسوية المسألة المصرية ، وموافقة انجلترا على هذا الطلب جعل السلطان يعدل عن قرار عزل الخديو توفيق ويحتفظ بالأحوال الراهنة فى مصر حتى لا يعطى الدول الأوربية مجالا للتدخل . فقد اعتبر أن المسألة المصرية مسألة داخلية لا يصح لفرنسا أو انجلترا التدخل فيها . وعلى ذلك رفض السلطان اقتراح عقد مؤتمر فى الاستانة ، وقام بتأييد سلطة الخديو توفيق حتى يثبت للدولتين أن الأحوال فى مصر مستقرة .

ولكى ينال البرنس حليم موافقة الدول الكبرى على تعيينه خديويا

---

(٣٤) دار الوثائق : محفظة ١٣٠ ابحاث . الـ

(٣٥) محافظ ابحاث : المحفظة ١٠٦ كراسة ط

(٣٦) نفسه ، برقية رقم ١٤ ص ١٩ .

it., p. 305.

على مصر ، قام هو وزوجته بزيارة السفارات الأجنبية بالاستانة[٣٩] • وعرض آراءه ومقترحاته حول الحالة الحاضرة فى مصر[٤٠] •

ونتيجة لذلك تباحثت الدول فى أمره[٤١] حتى وصل الأمر أن دى فريسينيه كتب بصفة سرية الى جرانفيل يقترح عليه استبدال توفيق بالبرنس حليم ، ولكن هذا الاقتراح رفضه جرانفيل[٤٢] كما أن النمسا وألمانيا وجدا أن العلاج الناجح لحل المسألة المصرية هو استبدال توفيق بحليم خصوصا وأن المصريين كانوا سيقبلون هذا الوضع بارتياح[٤٣] فعدد كبير منهم كانوا يعرفون أن حليم شخص أكثر ذكاء وأسمى فى آرائه السياسية والليبرالية من توفيق[٤٤] وبرغم ذلك فان العرابيين لم يعتبروا تولية حليم الحل الأمثل للموقف فى مصر[٤٥] •

وحاول حليم السفر الى أوربا لعرض قضيته والتباحث فى أمر تعيينه خديويا مكان توفيق لكن السلطان رفض السماح له بالسفر[٤٦] مما سر توفيق ، واعتبر ذلك بمثابة بعد نظر وســداد رأى من جانب السلطان[٤٧] فأرسل الى السلطان يعبر عن شكره على كريم عطفــه

---

(٣٩) محافظ ابحاث ، محفظة ١٦٤ عابدين ، برقية من ثابت باشــا الى طلعت باشا •

(٤٠) البرقيات المتبادلة بين القاهرة والاستانة اثناء الثورة العرابية برقية من القبوكتخدا بتاريخ ١٢ سبتمبر ١٨٨١ •

(٤١) محافظ ابحاث ، محفظة ١٦٤ عابدين من ثابت باشا الى طلعت باشا •

(٤٢) أحمد شفيق : المرجع السابق جـ ١ ص ١٢٣ •

(43) Blunt : op. cit., p. 276.

(44) Ibid p. 262.

(45) Ibid.

(٤٦) محافظ ابحاث ، محفظة ١٦٤ عابدين • من ثابت باشا الى طلعت باشا •

(٤٧) محافظ ابحاث ، محفظة ١٦٣ عابدين ، برقية من الخديو الى ثابت باشا بتاريخ ١٦ محرم ١٢٩٩ هـ •

ولطفه ، موضحا أنه يريد أن يمرغ وجهه ونظره فى تراب الاعتاب السلطانية حتى يفوز بالشرف[٤٨] .

والسؤال الذى يطرح نفسه هو هل كان قادة الثورة العرابية على اتصال بالبرنس حليم ، ومستعدون لتوليته اريكة الخديوية بعد عزل توفيق ؟

أوضح سليم النقاش أن عرابى لم يرتبط بأى صلات مع البرنس حليم[٤٩] .

كما ذكر الرافعى أنه عندما تكلم البعض مع عرابى فى ذلك الموضوع « صرح غاضبا بأنه من الواجب التخلص من أسرة محمد على بأكملها »[٥٠] .

والواقع أن عرابى لم يكن ينتمى الى مجموعة حليم فى مصر ، وفى نفس الوقت لم يكن يعارضها خصوصا بعد أن ظهر انحياز الخديو للانجليز[٥١] لذلك تمت اتصالات سياسية بين العرابيين وحليم ، وكان من رأى العرابيين اتخاذه كورقة سياسية يمكن استعمالها فى الوقت المناسب ويؤكد وجهة نظرنا أن الخديو توفيق قد أكد فى برقية منه الى ثابت باشا أن عرابى وبعض أمراء الآلايات تقابلوا مع مندوب البرنس حليم ، كما أنه قد حدثت مقابلات أيضاء بين رفقاء عرابى وحليم باشا[٥٢] .

---

(٤٨) نفســه .

(٤٩) سليم النقاش : مصر للمصريين جـ ٧ .

(٥٠) الرافعى : الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى ، القاهرة — النهضة المصرية ، الطبعة الثانية ص ٢٦٤ .

(51) Blunt : op. cit., p. 262.

(٥٢) محافظ ابحاث ؛ المحفظة ١١٦ تلغراف من الخديو الى ثابت باشا بتاريخ ١٤ فبراير ١٨٨٢ .

وتوضح وثائق الثورة العرابية أن محمود سامى البارودى اتصل بعثمان باشا فوزى أحد أعوان البرنس حليم وسأله عن سن حليم باشا وطلب منه صورة له فأعطاه ثلاثة رسومات احتفظ البارودى بواحدة وأعطى لعرابى واحدة أما الصورة الثالثة فاعطاها البارودى لأحد الضباط(٥٣) .

وقد أكد ميخائيل شاروبيم أن البرنس حليم تقرب من عرابى ورجاله بالهدايا النفيسة والتحف الجليلة عن طريق أحد خدام بيت أبيه حتى « يستفزه الى نصرته برد تاج الوراثة اليه .. وكان عرابى يسايره ويتكلف فى الرد عليه ويمنيه بالأمانى الكثيرة »(٥٤) .

ومما يوضح أن العرابيين كانوا على اتصال بأعوان البرنس حليم كما أنهم لم يستبعدوا تماما فكرة تعيينه على الخديوية المصرية مكان الخديو توفيق اذا اضطرتهم الظروف الدولية الى ذلك ، فكان تولية حليم هو أحد البدائل أمامهم ، وورقة سياسية يلعبون بها أمام كل من الخديو وأوربا . فعندما احتدم النزاع بين الخديو والعرابيين حول التصديق على الأحكام الصادرة على الضباط الجراكسة فى المؤامرة الجركسية ضد العرابين جاهر بعض العرابيين برغبتهم فى خلع الخديو توفيق وتعيين البرنس حليم مكانه .

وبعد استقالة وزارة البارودى كتبت عرائض فى منزل عرابى وقع عليها الأهالى بخلع الخديو وتعيين البرنس حليم(٥٥) .

---

(٥٣) محافظ الثورة العرابية : محفظة رقم ١٣ دوسيه ٢٣٠ جـ . محضر استجواب عثمان باشا فوزى وكيل دائرة دولتلو زينب هانم وانجه هانم .

(٥٤) ميخائيل شاروبيم : الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث جـ ٤ . القاهرة ، المطبعة الاميرية ص ٢٧٣ .

(٥٥) الرافعى : المرجع السابق ص ٢٦٧ ، اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار جـ ٢ ص ٣٨٩ .

ولما تطورت الأمور بين عرابى والخديو توفيق الى الحد الذى رفض فيه عرابى تنفيذ أوامر الخديو واتهمه بمخالفة الشرع والقانون هدد العرابيون بالدعوة الى أن يحل حليم مكان توفيق •

واستمر العرابيون يتخذون من حليم باشا ورقة للمساومة ولكن نتيجة لتطور الأمور وانكسار الثورة العرابية واحتلال الانجليز مصر أصبحت السيطرة الحقيقية فى يد المعتمد البريطانى واستند الخديو توفيق على ذراع انجلترا القوى فأصبح فى مأمن من مؤامرات الاستانة، وبذلك حسم الصراع لصالحه •

وابتعد حليم عن الشئون المصرية ورضى بتعيينه عضوا فى مجلس شورى الدولة بالاستانة[٥٦] ، وبعد تولى عباس الثانى اريكة الخديوية المصرية عام ١٨٩٢ قام بتحسين العلاقة مع البرنس حليم وكان يزوره فى الاستانة كلما سافر الى هناك[٥٧] وظل حليم مقيما فى الاستانة حتى أدركته المنية فى يونية ١٨٩٤ ، فأمر الخديو بنقل جثمانه الى مصر حيث دفن فى مقابر العائلة الخديوية[٥٨] •

---

(٥٦) الياس زاخورة : المرجع السابق جـ ١ ص ٥٤ •

(٥٧) احمد شفيق : المرجع السابق جـ ٢ ص ١٠٠ •

(٥٨) د. رءوف عباس حامد : مذكرات محمد فريد . القسم الأول — تاريخ مصر من ابتداء ١٨٩١ . القاهرة — عالم الكتب ١٩٧٥ ص ٢٠٦ •

— ٢ —

موقف الدولة العثمانية من الثورة العرابية

دكتور عبد المنعم ابراهيم الدسوقى الجميعى
كلية التربية — جامعة القاهرة

مقـــدمة :

وجدت الدولة العثمانية فى قيام الثورة العرابية والنزاع المستمر بين الخديو والعرابيين فرصة للتدخل فى شئون مصر الداخلية بحجة فض النزاع واقرار الأمور ، ومع ان السلطان عبد الحميد الثانى وجد فى الثورة فرصة للانتقاص من مزايا الاستقلال الداخلى الذى حصلت عليه مصر فانه آثر التريث فى الانضمام الى اى من الطرفين ، ورغم انه لم يكن مرتاحا للحركة الوطنية المصرية لانه كان يخشى انتشار مفهوم الثورة منها الى باقى ولايات دولته نظرا لموقع مصر الجغرافى فى وسط ممتلكاته بالاضافة الى ان الثورة العرابية طرحت مفاهيم تستنكرها الدولة العثمانية كل الاستنكار مثل الدعوة الى النظام النيابى وفكرة توزيع الأرض على الفلاحين الا انه حاول اللعب على الطرفين والوقوف مع الجانب التى ترجح كفته فى النزاع فكانت هناك اتصالات بين رسله وبين عرابى كما كانت هناك اتصالات بينه وبين الخديو ، ورغم أن الخديو قد ارسل الى السلطان يطلب ارسال قوات تركية الى مصر للقضاء على الثورة فان السلطان خشى من رد فعل الدول الأوربية خصوصا وأن خبرة الدولة العثمانية فى الصدام مع الدول الأوربية منذ مؤتمر برلين جعلتها تتردد فى انتهاز هذه الفرصة .

ومن الطبيعى ان يكون حجر الزاوية بالنسبة لكتابة هذا الموضوع

هو الوثائق التركية لذلك فقد رجعت الى الوثائق التركية المترجمة الى العربية والموجودة بدار الوثائق بالقلعة تحت عنوان ملف ثابت باشا المحفظتان ١٦٣ ، ١٦٤ عابدين ، ومحفظة ١١٦ أبحاث ، ودفتر ٢٨٧ عابدين بالاضافة الى محافظ الثورة العرابية وبعض المراجع الأخرى .

وملف ثابت باشا يحتوى على الكثير من الوثائق الخاصة بالثورة العرابية ووجهة نظر الدولة العثمانية تجاهها .

وثابت باشا كان يعمل مندوبا للخديو بالاستانة أثناء قيام الثورة العرابية وتذكره الوثائق بانه « تبوكتخدا الحضرة الخديوية بالاستانة » .

ومحور الموضوع الرئيسي يدور حول الرسائل المتبادلة بين الخديو والباب العالى والتى يتضح منها :

١ — موقف الدولة العثمانية من الثورة العرابية بعد مظاهرة عابدين وبعثة نظامى باشا .

٢ — موقف الدولة العثمانية من المؤامرة الجركسية .

٣ — بعثة درويش باشا حتى منشور السلطان باعلان عصيان أحمد عرابى .

حاولت الدولة العثمانية استغلال احداث الثورة العرابية لتثبيت سيادتها على مصر والانتقاص من مزايا استقلالها الذى نالته فى عهد محمد على ثم فى عهد إسماعيل ، ومع ان الخديو توفيق قد ساعدها على ان تنتقص من هذه المزايا بطلبه ارسال قوات تركية الى مصر لاخماد الثورة العرابية وكان فى ذلك فرصة لها لتحقيق أغراضها الا انها لم تستغل هذه الفرصة فأثناء قيام مظاهرة عابدين فى ٩ سبتمبر ١٨٨١ ارسل الخديو ثلاث برقيات الى الباب العالى تتضمن الحادث ولكن بصورة مختصرة من غير أن يوضح فيها الأسباب الحقيقية له والباعث عليه مكتفيا باسناد قيام الثورة الى ضابط برتبة « اميرالاى » (١) تمكن من استمالة الجيش المصرى اليه واحاط « بتعضيد من معظم ذلك الجيش بقصر عابدين . . وضرب الحصار حوله » (٢) وقد طلب الخديو « ارسال قوة عسكرية يبلغ مقدارها عشرين طابورا على جناح السرعة على ان

تكون قيادتها العامة منوطة به خاصة » (٣) ولما كان الباب العالى يخشى رد فعل الدول الأوربية وخصوصا انجلترا لو تدخل عسكريا فى مصر ، بالاضافة الى ان الخديو توفيق لم يكن منظورا اليه فى الاستانة بعين العطف والرضا (٤) فقد ارسل الباب العالى يطلب معلومات اكثر وضوحا عن الحادث حيث ذكر فى برقية له الى الخديو « وبما انه ليس من المحتمل قط ان لا يكون لديكم انباء عن ظروف وملابسات تلك الثورة العسكرية قبيل اجتماع الجنود على الثورة والاخاطة بسموكم فى قصركم وتضييق الحصار عليه فضلا عن ان حكومتكم لابد لها من علم بالظروف والاحوال التى ساعدت على تكوين هذا الحادث .. فازاء ذلك لا يسع الباب العالى ان يقوم باى سعى لاعادة الامن الى نصابه وتسوية المسألة وفق الاعتبارات المحلية مالم يحصل اولا على المعلومات الوثيقة من سموكم لتجلو الاحوال جلاء تاما » (٥) .

وكان رد الخديو على هذه البرقية قوله : « ان الحكومة لم يكن عندها اى نبأ او علم سابق بهذا الموضوع ، وكل ما هنالك اننا نعلم أن هناك صحيفة تدعى (ابو النظارة الزرقاء) يصدرها فى باريس باللغة العربية العامية رجل يدعى (جمس) (٦) له اتصال وثيق بطبيب عمى سمو عبد الحليم باشا وان آلاف من اعداد هذه الصحيفة تدخل مصر بطرق مختلفة ، وتوزع سرا ومجانا بين صفوف الجيش .. ولا يخفى على أحد ان الذى ينفق بسخاء على طبع ونشر هذه الصحيفة هو سمو عبد الحليم باشا لا غير وبما ان الدعايات التى تقوم بها هذه الصحيفة والأفكار التى تبثها تتفق تمام الاتفاق مع الأفكار السائدة الآن فى البيئات الناقمة والطبقات المتذمرة فى الجيش فيمكننا ان نقول ان لدعاية هذه الصحيفة دخلا كبيرا فى قيام هذه الفتنة العسكرية (٧) ثم ذكر ان الحادث انتهى من غير حاجة الى اتخاذ تدابير شديدة نحو ازالته(٨) ثم اكد فى برقية اخرى « ان الجيش الآن فى غاية الخضوع والطاعة وان سائر الأمور والشئون جارية على مايرام » (٩) ومع ذلك فان الحكومة التركية رات فيما حدث ذريعة للتدخل السياسى فى شئون مصر وانتحال حق الاشراف عليها — على الرغم من محاولات انجلترا للتضييق على السلطان للاحالة دون ذلك (١٠) حتى يمكنها العمل منفردة فى مصر — فقررت ارسال

لجنة الى مصر للنظر فى الحوادث الاخيرة ، وقد عرفت هذه اللجنة بالوفد العثمانى وكانت برئاسة على نظامى باشا سرياور السلطان عبد الحميد وعلى بك فؤاد من اعضاء مجلس شورى الدولة (١١) ونجل عالى باشا الصدر الأعظم المشهور ومعهما قدرى بك وصفر افندى وسيف الله افندى من ياوران السلطان .

يذكر الاستاذ عبد الرحمن الرافعى فى كتابه « الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى » أن هذا الوفد تحرك من الاستانة يوم ٢ اكتوبر ١٨٨١ قاصدا مصر ولم يسبق تأليفه مخابرة بين حكومة الاستانة والحكومة المصرية حتى تعرف المقصد من ايفاده (١٢) ولكن الوثائق التركية تثبت ان الخديو كان يعلم عن طريق مندوبه فى الاستانة (١٣) بتشكيل الوفد والمهمة التى سيكلف بها (١٤) .

جاء الوفد الى الاسكندرية يوم الخميس ٦ اكتوبر ١٨٨١ ووصل اعضاؤه الى القاهرة فى مساء ذلك اليوم ونزلوا ضيوفا على الحكومة المصرية وفى صبيحة الجمعة ذهبوا الى سراى الاسماعيلية لمقابلة الخديو فاستقبلهم بالترحاب وابلغوه ان الغرض من حضورهم هو اظهار الثقة به وتثبيت مركزه (١٥) كما ذهب نظامى باشا الى ديوان الحربية بقصر النيل حيث استقبله محمود سامى البارودى ناظر الجهادية وهناك القى خطابا فى كبار الضباط حثهم فيه على طاعة الخديو (١٦) ورد عليه طلبه عصمت بخطاب اعلن فيه خضوع الضباط والجنود للسلطان والخديو (١٧) .

ولما زار الوفد العثمانى شيخ الجامع الازهر وبعض الشيوخ وجدوا فى حديثهم اطراء على الجيش واعماله (١٨) وظل رجال الوفد العثمانى فى مصر بضعة عشر يوما بين مقابلات وولائم ، واجمعت كلمة من حادثوهم على ان البلاد ليس فيها اى اضطراب واكد لهم الخديو ان الجيش على طاعته وبذلك انتهت مهمتهم (١٩) وغادر الوفد القاهرة الى الاسكندرية فى ١٨ اكتوبر ١٨٨١ (٢٠) .

والجدير بالذكر ان انجلترا وفرنسا استاءتا من حضور الوفد العثمانى الى مصر على غير اتفاق معهما واعتبرتاه تدخلا فى شئون مصر

الداخلية وطلبيتا من الحكومة العثمانية بتقصي مدة اقامته (٢١) كما انتهز السير ادوارد مالت القنصل الانجليزي الفرصة لكي تبسط بلاده نفوذها على مصر فطلب من حكومته ارسال بارجة حربية الى مياه الاسكندرية فاجابته الى طلبه كما اتفقت مع الحكومة الفرنسية على ان ترسل هي الأخرى بارجة على أن تغادر البارجتان الاسكندرية حين مبارحة الوفد العثماني مصر ، وفعلا حدث ذلك حيث غادرت البارجتان ميناء الاسكندرية في ٢٠ أكتوبر ١٨٨١ أي غداة سفر الوفد العثماني (٢٢) .

هذا عن موقف الدولة العثمانية تجاه الثورة العرابية عقب مظاهرة عابدين اما عن موقفها من المؤامرة الشركسية (٢٣) فانه بعد ان ارسل الخديو الى السلطان بخصوص هذا الموضوع وطلب منه ارشاده حول الاحكام القاسية التى اصدرها العرابيون ضد الشراكسة ويقترح علية عدم تنفيذ الأحكام (٢٤) وقف السلطان مؤيدا لموقف الخديو وسر من ذلك سرورا بالغا وتمنى للخديو الخير وقال « انه طالما يظل الخديو مقيما على اخلاصه الذى اظهره للدولة العلية حتى الآن .. فانه سيجد الدولة العلية مساعدة ونصيره له على الدوام » (٢٥) .

ومع ان الأحوال فى مصر كانت غير مستقرة فانجلترا تمهد للتدخل العسكرى والخديو يشكو للسلطان من العرابيين ويطلب منه — عن طريق رسالة بعث بها الى ثابت باشا بالآستانة — ارسال قوات عسكرية تركية تقف امامهم بقوله « وقد راح هؤلاء الضباط (يقصد العرابيين) يعملون للوصول الى اهدافهم بالتدريج كلما سنحت لهم الفرصة الى أن بلغوا حد السيطرة على جميع القوات العسكرية ، وهم الآن خارجون عن الطاعة كل الخروج وليس لهذا الوضع من علاج سوى اخذ هذه القوات العسكرية من ايديهم وردها الى القانون والنظام وهذا يحتاج الى قوة عسكرية تقف امامهم » (٢٦) ولكن السلطان تردد فى ارسال جنود عثمانيين الى مصر خشية الصدام مع الدول الأوربية كما ان معظم المشايخ بالآستانة اوضحوا للسلطان بأن « ارسال عساكر المسلمين لقتال اخوانهم المسلمين يضر بمقام الخلافة » (٢٧) يضاف الى ذلك ان السيد احمد اسعد وهو من الشيوخ المقربين من السلطنة كان قد مدح عرابى امام السلطان (٢٨) وذكره بأنه الرجل الذى يرجى منه الخير لمصر .

ولمعالجة الموقف استقر رأى السلطان العثماني على ارسال بعثة الى مصر بحجة اعادة الامور فيها الى نصابها ومعالجة الأحوال على أساس الاستفادة من الخلاف بين الخديو والعرابيين ابتغاء تثبيت سلطة الدولة فى مصر (٢٩) وفى الثانى من شهر يونية ١٨٨٢ عين السلطان مصطفى درويش باشا أحد رجال الحاشية السلطانية مندوبا عثمانيا ساميا وعهد اليه برئاسة وفد مكون كما تذكر الوثائق التركية من « نجله، واربعة من الياوران وكاتبه الخاص ونحو تسعة من خدم المابين (٣٠) . ومجموع الذين سيأتون فى معيته حوالى ثلاثين نفرا ، وفوق ما تقدم سيكون فى رفقته حلمى بك مدير مكتب تلغراف المابين السلطانى ، وان الذين سيرافقونه من يعرف اللغة العربية » (٣١) وامره بالسفر الى مصر . وكانت خطة الوفد ان يتظاهر درويش باشا بانه جاء لتثبيت سلطة الخديو، وان يتعامل اسعد باشا احد اعضاء الوفد مع عرابى ويوضح له رضى السلطان عنه (٣٢) .

وصل درويش باشا والوفد المرافق له الى الاسكندرية يوم الاربعاء الموافق ٧ يونية ١٨٨٢ على ظهر اليخت السلطانى عز الدين (٣٣) فارسل الخديو وفدا برياسة على ذو الفقار باشا لاستقباله على ظهر اليخت كما ارسل عرابى من طرفه يعقوب سامى باشا وكيل نظارة الجهادية لاستقبال الوفد ، ولكن الخديو اعترض على ذلك وابلغ محافظ الاسكندرية بعدم موافقته على اجراء اى شىء من رسوم الاستقبال من طرف العرابيين للبعثة ، ولكن يعقوب باشا لم يكترث بالأمر بحجة انه موفد من طرف ناظر الجهادية لا يمنعه عن ذلك سوى اوامر منه (٣٤) وفعلا تم استحضار ثلاثة قوارب احداها لوكيلى الجهادية والبحرية والثانى لمحافظ الاسكندرية والثالث لمندوبى المعية ، وساروا سويا ولكن قارب الوكيلين سبق القاربين الآخرين ووصل قبلهما بمدة ربع ساعة تقريبا وعند وصولهما استقبلهما دولتلو درويش باشا باعظم قبول واختلى بسعادة يعقوب باشا وتحدث معه مليا ، وبعدها وصل القاربان الآخران وكانت مقابلتهما اعتيادية، ولما ركب ذو الدولة درويش باشا فى الزورق المعد لركوبه استصحب معه سعادة يعقوب باشا وكيل الجهادية فقط وترك الآخرين (٣٥) .

وفى اليوم التالى سافر درويش ووفده الى القاهرة فجمع مأمور

الضبطية بها بعض الاهالى ومررهم بالطريق الذى يمر منه درويش باشا « فأخذوا يرفعون اصواتهم بمدح احمد عرابى وخفض شأن الخديو » (٣٦)

ولما ذهب درويش باشا الى سراى الاسماعيلية قابله الخديو بالترحاب (٣٧) ورد له الزيارة بسراى الجزيرة ، وهو المكان الذى اعد لاقامة الوفد (٣٨) كما حضر الى سراى الجزيرة بعض العلماء للترحيب بدرويش باشا وتحدث « الشيخ عليش والشيخ حسن العدوى وغيرهم من المنتمين الى عرابى عن مساوىء الخديو » (٣٩) .

لقد كانت خطة البعثة العثمانية التظاهر لكل من الخديو والعرابيين بأن السلطان معه ، وكان من مظاهر ذلك أن الوفد طلب نحو مائتى نيشان للضباط مكافأة لهم على اخلاصهم للسلطان كما طلب لعرابى النيشان المجيدى من الطبقة الأولى ، ولكن بعد أن منح الخديو درويش باشا رشوة قيمتها خمسون الف جنيه بالاضافة الى هدايا قيمتها خمسة وعشرون الف جنيه (٤٠) انضم درويش علانية الى الخديو وظهر ذلك فى محاولاته المتكررة للتخلص من عرابى فطلب اليه أن يسافر الى الاستانة لشكر السلطان على منحه الوسام (٤١) وأن يترك له ديوان الجهادية وقد فطن عرابى الى العواقب المترتبة على تركه ديوان الجهادية والسفر الى الاستانة فقال له « خذ عليك عهده حفظ الارواح وانشر ذلك فى الجرائد العربية والتركية والافرنجية وانا اتوجه الى الحضرة الملوكية » (٤٢) ولما تردد درويش باشا فى الأمر ذكر له عرابى بأن الأمة لا تسمح له بمغادرة البلاد (٤٣) وانه لايستطيع امام الأزمة الراهنة التى نشأت من جراء عدوان الانجليز الذهاب الى اى مكان وانه سيعبر عن عرفانه للسلطان بالجميل برقيا (٤٤) .

ولما فشل درويش فى مبتغاه اعطى اوامر سرية لقبطان الباخرة التركية (عز الدين) التى اقلته الى مصر بالاستعداد للرحيل والاقلاع الى استنبول بمجرد صعود عرابى الى ظهرها ثم ذهب الى عرابى واظهر له وده وطلب منه زيارة السفن المصرية الراسية فى الميناء وكذلك الباخرة التركية المذكورة ، ولكن عرابى أحس بالمؤامرة فذكر له انه ضابط مشاة ولا شأن له بالبحر ، وان من الأولى عدم اضاعة الوقت فى زيارة

السفن (٤٥). ولما أحس رجال الثورة العرابية بميول درويش باشا العدائية تجاه الحركة الوطنية أرسلوا عبد الله النديم الى الأزهر حيث عقد اجتماعا حضره حوالى أربعة آلاف شخص هاجم فيه البعثة التركية والخديو مما هز مركز درويش باشا ، واصر المجتمعون على رحيله ولو رفض يقبض عليه ويرحل بالقوة (٤٦) .

أما عن موقف أسعد باشا عضو الوفد العثمانى والمكلف بالتعامل مع عرابى فقد جمع توقيعات من الأهالى محررة ضد الخديو « ومختومة بالمئين خاتم » (٤٧) .

استمر انحياز درويش باشا للخديو حتى بعد ضرب الاسكندرية ويتضح ذلك من رسالة بعث بها عرابى الى احد اصدقاء السلطان يشكو من انحياز درويش باشا الى الخديو الذى انحاز الى الانجليز « مع أنه كان من الواجب على دولته ذمة وديانة ان ينصح الخديو بأن يتوجها معاً الى العاصمة مقر الحكومة ليكونا خلف الجيش لا ان يتركا جيش الاسلام الشاهانى وينحازوا الى جيش العدو المحارب (٤٨) .

استمر طلب الخديو للجنود العثمانيين حتى بعد ضرب الاسكندرية ويتضح ذلك من رسالة بعث بها الخديو الى ثابت باشا يقول فيها « وقد رفعت الى الحضرة السلطانية بوساطتكم كما كتبت المرة بعد المرة اصف الحالة وجميع مقاصدى منصبه على رفع الاذى عن هذه البلاد السلطانية وتوطيد الأمن فيها ... وهذا يتوقف على قدوم العساكر السلطانية (٤٩) .

ويهمنا هنا ان نذكر بأن كلا من بعثتى نظامى ودرويش لم تحضرا الى مصر بنية خالصة بل حضرتا لاثبات سلطة تركيا فى مصر دون أن تعمل كلتاها اى عمل نافع لفض النزاع بين العرابيين والخديو أو لانقاذ مصر من مطامع انجلترا (٥٠) بل تركتا مصر اشد ارتباكا واكثر اضطرابا عما كانت عليه ، ويكفى ان نذكر انه لم يكد يمضى على حضور درويش باشا الى مصر بضعة ايام حتى وقعت مذبحة الاسكندرية فى ١١ يونية ١٨٨٢ ، وفى وجوده ايضا استمر الموقف فى التأزم وضربت الاسكندرية بمدافع الأسطول الانجليزى وقد زاد موقف تركيا تجاه القضية المصرية تخبطا

امتناعها فى بادىء الامر عن الاشتراك فى مؤتمر الاستانة الذى عقد فى عاصمتها فى ١٥ يوليو ١٨٨٢ بغرض المحافظة على الاوضاع الحالية فى مصر وتأييد سلطة الخديو ، وكان امتناعها مبنيا على ان هذه المسألة داخلية بحتة ليس للدول الأوروبية شأن بها كما كانت تعتقد ان ايفادها درويش باشا الى مصر سيحل المسألة المصرية وان التحقيقات التى سيجريها ستسوى الموقف مما يغنى عن عقد مؤتمر بشأنها ، ولما ادركت خطأها اشتركت فى المؤتمر آخر الأمر ورضيت بارسال جيش عثمانى الى مصر وفوضت درويش باشا قيادة العساكر العثمانية المقرر ارسالها الى مصر وابلغت الخديو بذلك (٥١) ولكن فات الاوان بضرب انجلترا للاسكندرية بمدافع الاسطول وارسال قواتها لاحتلال مصر ، وبينما كان الانجليز يتقدمون فى داخل البلاد كانت المفاوضات مستمرة بين اللورد دفرين سفير انجلترا فى الاستانة والباب العالى للاتفاق على خطة ارسال الجيش العثمانى الى مصر وكانت انجلترا تقصد من هذه المفاوضات اطالة الوقت وتعطيل ارسال جيش من تركيا حتى تقمع الثورة فلا يبقى سبب لمجىء ذلك الجيش (٥٢) وفى غضون ذلك استطاعت انجلترا تغيير ميزان المعركة ليس حربيا فقط بل سياسيا أيضا اذ استطاعت نتيجة للمحادثات المكثفة بينها وبين تركيا ، ونتيجة لجهود اللورد دفرين مندوبها فى الاستانة فى الضغط على السلطان (٥٣) فقد ربطت انجلترا موافقتها على ارسال عساكر عثمانية باصدار منشور يتضمن ان عرابى عاص وثائر وان الدولة العثمانية ملتزمة بالمحافظة على الخديو وعلى نفوذه وامتيازاته (٥٤) وقد اصدر السلطان هذا المنشور مما قلب ميزان الحماس الشعبى واضاع التأييد الاسلامى والعربى للثورة (٥٥) وكان له اسوأ الاثر فى النفوس وقد نشر هذا الاعلان فى جريدة الجوائب(٥٦) كما ارسلت نسخة منه الى عرابى (٥٧) .

استغلت انجلترا هذا المنشور فى اضعاف الروح المعنوية لدى العرابيين فبادرت القوات الانجليزية باذاعة اعلان السلطان بعصيان عرابى اثناء زحفها مما ادى الى ايقاع الفرقة والانحلال فى صفوف العرابيين وانصراف الناس عن تأييد عرابى فى القتال وخصوصا بعد ان تمكن أعوان الخديو وعلى رأسهم محمد سلطان باشا من توزيع

المنشور (٥٨) على الضباط والجنود الذين أحسوا بصدمة عنيفة بعد الاطلاع عليه مما أثر فى روحهم المعنوية وضعفت حميتهم الدينية وسهل على الانجليز دخول مصر (٥٩).

هذا عن الموقف الرسمى للدولة العثمانية تجاه الثورة العرابية أما عن الموقف الشعبى داخل الآستانة — وخصوصا موقف رجال الدين — فكان فى معظمه بجانب عرابى فالشيخ على افندى مدرس السلطان والحائز على رتبة الصدر (رتبة دينية) كان يشيد بعرابى ويثنى عليه ويقول عنه انه « رجل عظيم متدين » (٦٠) والشيخ نجيب افندى الحائز على رتبة (الصدر) أيضا كان من مؤيدى عرابى والمدافعين عنه لدى السلطان (٦١) كما كان بعض خطباء المساجد بالآستانة يدعون لعرابى على المنابر .

ومما سبق يتضح أن موقف الدولة العثمانية الرسمى تجاه الثورة العرابية ابتداء من بعثة نظامى باشا وحتى اعلان السلطان منشوره بعصيان عرابى كان قائما على أهمية تثبيت السيادة التركية على مصر دون الاهتمام بمصالح مصر ومصيرها ، كما أن الدولة العثمانية حينما سنحت لها الفرصة بالتدخل المسلح فى مصر بعد استنجاد الخديو بها خشيت من رد فعل الدول الأوربية وخصوصا انجلترا ازاء ذلك ، ولما ترددت تركيا فى نجدة الخديو عسكريا وتباطأت فى اتخاذ مواقف محددة طلب الخديو من الانجليز المعونة وكان له ما أراد مما أتاح لانجلترا فرصة احتلال مصر .

الحـــواشى

(١) دار الوثائق القومية : محافظ ابحاث ــ المحفظة ١١٦ دوسيه ٢ « الثورة العرابية » ترجمة الدفتر ٢٨٧ « البرقيات الواردة من استانبول والصادرة اليها أثناء الثورة العرابية ١٢٩٨ هـ (١٨٨١م) » .

(٢) نفس المحفظة والدوسيه . برقية من الجناب العـــالى الخديو الى الباب العالى بتاريخ ١٥ شوال ١٢٩٨ (٩ سبتمبر ١٨٨١) .

(٣) المصـــدر نفسه .

(٤) عبد الرحمن الرافعى : الثورة العرابية والاحتـــلال الانجليزى ، القاهرة ــ النهضة المصرية الطبعة الثانية ١٩٤٩ ص١٦٦ .

(٥) محافظ أبحاث ــ المحفظة ١١٦ « البرقيات الواردة من استانبول والصادرة اليها اثناء الثورة العرابية » .

(٦) يقصد جيمس سانوا (يعقوب صنوع) .

(٧) محافظ ابحاث ، المحفظة ١١٦ ترجمة الدفتر نمرة ٢٨٧ عابدين ــ البرقيات الواردة من استانبول والصادرة اليها أثناء الثورة العرابية ــ برقيـــة من الجنـــاب الخـــديو الى البـــاب العالى بتـــاريخ ١٧ شـــوال ١٢٩٨هـ (١١ سبتمبر ١٨٨١) .

(٨) البرقية السابقة الذكر .

(٩) دار الوثائق القومية . دفتر ٢٨٧ عابدين ــ صادر ٧ بتـــاريخ ٧ ذى القعدة ١٢٩٨ (٣٠ سبتمبر ١٨٨١) .

(10) Public Record office, F. O. 407/18 No. 45 Earl Cranville to the Earl of Dufferin, September 18, 1881 Telegraphic No. 436.

(١١) الوقائع المصرية : العدد ١٢٢٩ فى ٨ اكتوبر ١٨٨١ .

(١٢) عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق الذكر ص ١٦٥ .

(١٣) عمل ثابت باشا مندوبا للخديو بالاستانة أثنـــاء قيـــام الثورة العرابية واستمر هنـــاك فى المـدة من شهر ذى الحجة ١٢٩٨ الى صفر ١٢٩٩ وبعد عودته شغل عدة مناصب منها مهردار خديو ثم عين فى نظارتى الداخلية والأوقاف وبعدها شغل منصب رئيس ديوان الخـــديو ، أنظر : دار المحفوظات العمومية : اوراق ربط معاش سعادة محمد ثابت باشا ــ دولاب ٢٧ عين ٤ محفظة ٥٧٤ دوسيه ١٧٢٠٠ .

محاضر جلسات مؤتمر الاستانة عام ١٨٨٢ م

الجلسة الخامسة المنعقده فى ٢ يوليو

من : ايرل دوفرين — القسطنطينية ٢ يوليو ١٨٨٢

الى : ايرل جرانفيل — سلم تلغرافيا فى ٣ يوليو

سيدى

يشرفنى ان ابعث لسيادتكم نسخة من نص التلغراف (البرقية) التى وافقنا عليها لارسالها الى حكوماتنا الموقرة ، عقب انتهاء الجلسة الخامسة والخاصة بمصر اليوم.

توقيع دوفرين

هذه صورة طبق الاصل من البرقية المرسلة بواسطة الممثلين الستة للدول الكبرى ، عقب انتهاء الجلسة الخامسة الخاصة بالازمة المصرية فى ٢ يوليو ١٨٨٢

لقد اعتبر المؤتمر المنعقد فى جلسته الخامسه ، بان الموضوع الجدير بالبحث هو دعوة القوات التركية للتدخل فى مصر ، ولقد استقر الرأى على ضرورة احاطة الباب العالى بانه من الحكمة الاشارة ،بان هذا التدخل امر مرفوض اذ من واجب القوى العظمى اتخاذ اجراءات اخرى ، اذ يحتفظ المؤتمر بالحق ليعبر عن رأيه عن هذا الموضوع فى الوقت الحاضر ، واخيرا ان المؤتمر ليعتبر ان القرار النهائى الذى يمكن التوصل اليه الان هو تبليغ الحكومة العثمانية

ولقد تحددت الجلسة التالية فى ٥ من الشهر الحالى يوم الاربعاء.

---

(١) Blue Book, Egypt No I7, P. 67,I882, doc. No 90

سيـــــــدى ..

ان الجلسة الخامسه للموتمر ، والتى عقدت بالامس بشأن النظر فى الازمة المصريه ، كانت ناجحه حقا .

وفى بدايه الجلسه لفت مستر دى نواليس انظار زملائه الاعضاء ، عن الامور الاساسيه ، حول تدخل القوات التركيه ، اذ انه أمر يخص الموتمر ، اذ قـــــد يوافق على الشــروط الواجب اتباعها والالتزام بها .

هذه الشــروط يجب الا تكون غير محددة بحيث تتيح فرصه للاتراك لفـــرض نفوذهم على مصر ، وفى نفس الوقت الا تكون هذه الشــروط متشددة بحيث يجد السلطان العثمانى صعوبه بالغه لتنفيـــذ دعوة المؤتمر.

وقد لاحظ السفير الفرنسى ، بأننا فى الجلسه السابقه للموتمر ، واثنـــــاء مناقشات الشــروط الواجب اتباعها من الناحيه الدستوريه ، توقفت المناقشات عنـــد " الشــروط المخففه " واعنى بذلك الدعوة الموجهة للسلطات.

عند هذا المعنى السابق ، بدأت المحادثات تتركز حول هذه المسألة ، ومن ثم تدخلت (دوفرين) لايجاد صيغـة للكلمات التى يجب ان توجه بها الدعوه ، خاصه فيما يتعلق باستدعاء القوات التركيه ، وكذلك وضع الخديو لكى يمارس سلطاتـه مع الحكومه العاديه المزمع تشكيلها من اجل عودة الاحوال فى مصر الى سابق عهدها .

ولقد قبل جميع زملائى اعضاء المؤتمر هذه الصيغة ، ثم بعد ذلك اتفقنـــا جميعا لمناقشة " الدعوة " للموافقه عليها من عدمه هذا فى حالة توجيه الدعوة الواجب الابراق بها للباب العالى ، وانه فى حالة رفض ارسال قوات الطوارئ هـــذه ، ففى هذه الحالــة ، سوف تتحمل اوربـــا مسئوليـــه التدخل فى الشئون المصرية علـى عاتقهـــا ٠

واقترح السفير النمساوى بأن اى شئ يصل الى درجة التهديد سيـــترك أثرا سيئا للغايـــة ٠ وعقب عليه مستر هير شفيلد بالموافقه على هذا الرأى

ثم اننى لاحظت (لورد دوفرين) بأن المناقشات تتركز بصفة خاصه حـــول ماهى الصيغه الواجب تبليغ السلطان بها ، فاذا استطعنا ان نقنع بأن سيادتـــه متفاهم ، بأننا سوف نحذف من انتراضا ــ بطبيعه الحال ــ اى شئ قد يأخذه ضدنا ، اما فى حالةثبـــوت عكس ذلك من تشدده فى موقفه ، فان وجهة نظـــــرى هو العودة الى اتباع الخطوات السابق عرضها على المؤتمر٠

واضفت قائلا ، أن رأى شخصى هذا سوف أبرق به الى حكومتى ولكنـــنى لست مفوضا لاعلان هذا الرأى على المؤتمـــر٠

ولقد شرح كونت كورتى مدى تعاونه بهذا الخصوص ٠

وأوضح كذلك دى نواليس بأن كلمة " التبليغ Comminatorire " قـــد تستعمل لطلب شئ افضل ، ففى هذه الحالة سوف نتعامل مع المشكلة المصريـــة على عاتقنا الخاص دون أن نلجأ الى التهديد ، وفى نفس الوقت نبعث يقطع أساطيلنا الى بوغاز الدردنيل ، ان صياغه العبارة ، من الواجب ان يكون عملا ينصت بالدبلوماسيه ٠

وفى نهايه الامر وافقنا على وجهة نظر كونت كورتى من حيث النص الذى سوف نبعث به الى الباب العالى ، وهو النص الذى سوف نبعث به الى حكوماتنا الموقـــره مرفقا به الحل الذى توصل اليه المؤتمر ٠

ولقد ابدى بعض الزملاء تحفظا Favour ازاء الدعوة الموجه من قبل المؤتمر الى السلطان ، ولكن هذا الامر يجعلنا اكثر تفاؤلا باننا سوف يوفـــد الى السلطان قبل ذلك أم رفض قبولي خطاب الدعوة ولكن وزاره الخارجيه لا تستطيع ان تقبل استلام نصوص الملاحظات من السفراء ، عندئذ وصلنا الى نفس التساؤل ، والى نفس الاجابة من كونت كورتي . والسفير النمساوى اعلن بانه سيظل بدون أن يتلقى تعليمـــات نهائيه حول هذه النقطه ، ولكنه هو شخصيا متحفظ ازاء توجيه الدعوة الى السلطان ، ولقد احاط حكومته بان هذه المسأله الرئيسيه التى كان يود ان يتلقى اجابة نهائيـــة فيهـــا .

وأعلن مستر اونو onou بانه يتحمل المسئوليه ازاء مسألة توجيه الدعـــوه الى السلطان لحين ورود موافقه الحكومات المعنيـة .

ولكن ظل هير شفيلد ثابتا على موقفه دون أن يتلقى تعليمات من حكومتـــه وكان من المناسب فى جلســة المؤتمر التاليه التى حدثت يوم ٢٥ الحالى ، الثلاثاء ، بأن مستر دى تواليس سوف يضع صياغ " الدعوة " بالشكل المقارب لما سبق ان عرضته على المؤتمر ، واصبح الان لدينا قناعة تامه بتبليغنا الموجه الى الباب العالى ، والذى سيكون معدا مساء يوم الثلاثاء القادم ، انتظارا الى تلقى تعليمات حكوماتنـــــا فى هذا الشأن .

توقيع ـ دوفريـــن